عالم نارنيا

سي اس لويس

الأسد والساحرة وخزانة الملابس

عـالـم

نارنيا



فتحوا باباً ودخلوا عالماً

نارنيا ... أرض يغطيها الثلج والجليد في شتاء دائم ... بلد ينتظر الانعتاق من شتائه.

عبر أربعةُ مغامرين باب خزانة ثياب إلى أرض نارنيا - أرض ترزح تحت سلطة الساحرة البيضاء. وحين لم يعُد هناك أيّ أمل، كانت عودة الأسد العظيم، أصلان، تعلن تغييراً عظيماً ... وتضحية عظيمة.

ISBN 90-5950-017-2

9 789059 500174

الأسد والساحرة وخزانة الملابس

«الظاهر أننا وُفّقنا بلا شك. ستكون إقامتنا هنا فاخرةً تماماً. فهذا العجوز سيسمح لنا بأن نفعل أيّ شيءٍ نريد». هذا ما قاله بطرس لسوزان وإدمون ولوسي.

من المُؤكّد أن الأستاذ المُسن بدا يعيش في عالم خاصّ به، ولذا سعى الأولاد لإيجاد ما يسلّيهم في هذا البيت الكبير الذي كان في قلب الريف يبعد كيلومتراتٍ كثيرة عن أي مكانٍ آخر.

في البداية، كان هنالك الانشغال المثير باستكشاف البيت - الممرات الطويلة، وحجرات النوم الإضافية التي لا نهاية لها، وسلسلة الحجرات التي تملأها الرفوف المُكدّسة بالكتب، وغرفةٌ كئيبة ضخمة ليس فيها سوى خزانة ملابس كبيرة. اعتقدت لوسي أن هذه الخزانة تستحق الفحص. وبينما كانت تدفع صفوف المعاطف المُعلّقة في الداخل، أحسّت شيئاً ناعماً كالبودرة وبارداً جداً. ثم لاحظت شيئاً بارداً وناعماً يسقط عليها، واكتشفت أنها تقف في وسط غابة في الليل، يغطي الثلج أرضها، وتتساقط رقائقه عبر الهواء. كانت لوسي قد وصلت إلى عالم نارنيا الغريب والسحري.

هذه هي المغامرة الشيّقة الثانية في عالم نارنيا.

روايات عالم نارنيا

الأسدُ والسّاحرة وخِزانة الملابس

سي اس لويس
رسوم: پولين بينز

ترجمة: سعيد باز



إلى لوسي بارفيلد

عزيزتي لوسي

كتبتُ هذه القصة لكِ، ولكن حين بدأتُ أكتبها أدركتُ أن الفتيات يكبرن أسرع من الكتب. ولذا فأنت الآن أكبر من أن تقرأي القصص الخيالية، وحين تُطبَع وتُجمَع وتُجلَّد، ستكونين أكبر أكثر. ولكن يوماً ما، ستكونين كبيرةً بما يكفي لتعودي إلى قراءة القصص الخيالية. وحينئذٍ، تستطيعين أخذ هذه القصة من أحد الرفوف العالية، فتنفضين الغبار عنه، وتخبرينني رأيك به. ربما سأكون حينها ثقيل السمع وكبيراً جداً لأفهم ما تقولين، ولكني سأبقى

عرّابكِ المُحب

سي أس لويس



تعريف الشخصيات

أصلان: ملك الغابات وسيِّدُها، ابن الإمبراطور في ما وراء البحر. إنه الأسد، الأسد العظيم. وهو يأتي ويذهب كيفما ومتى شاء، ويأتي لإطاحة الساحرة وإنقاذ نارْنيا. ويظهر أصلان في الكتب السبعة كلّها.

ديغوري كيرك: تقابل ديغوري من بداية «ابن أخت الساحر»، وهو مذكورٌ أيضاً في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». ولولا شجاعة ديغوري، لربما لم تسمع بنارْنيا قط. أما السبب فتجده في «ابن اخت الساحر».

پولي پلامر: هي أول شخصٍ يغادِر عالمنا إلى نارْنيا. وتشترك مع ديغوري في بداية كل شيءٍ في «ابن أخت الساحر».

جاديس: آخر ملكات شارْن التي دمّرتها هي نفسُها. تظهر جاديس مع ديغوري و پولي في «ابن أخت الساحر»، وقد استولت على البلاد في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». وفضلاً عن كونها شرّيرةً كُلّياً، فهي خطِرة جداً أيضاً، حتى في «الكرسيّ الفضيّ».

الخال أندرو: يعتقد السيّد أندرو كِترلي أنّه ساحر. ولكنه مثلُ جميع الذين يعبثون بأمور السحر لا يعرف بالحقيقة ما يفعله. وتأتي النتائج رهيبة في «ابنُ أختِ الساحر».

آل پيفِنسي:

بطرس پيفِنسي: الملك بطرس العظيم، الملك الأعلى

سوزان پيفِنسي: الملكة سوزان الرقيقة

إدمون پيفِنسي: الملك إدمون العادل

لوسي پيفِنسي: الملكة لوسي الباسلة

هؤلاء الأربعة من آل پيفِنسي، وهم أخوان وأختان، قدِموا إلى نارْنيا في زمان الشتاء الدائم إبّان حكم الساحرة البيضاء، ومكثوا هناك سنين نارْنيانيّة كثيرة، وأقاموا عصر نارْنيا الذهبي. وبطرس هو الأكبر سناً، تليه سوزان، ثمَّ إدمون ولوسي. وهم جميعاً متواجدون في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وفي «الأمير كاسبيان». كذلك يظهر إدمون ولوسي أيضاً في «رحلة جوّابة الفجر»، كما يظهر إدمون ولوسي وسوزان في «الحصان وصبيُّه»، فيما يظهر بطرس وإدمون ولوسي في «المعركةالأخيرة».

شصطى: يحيطُ سرٌ بهذا الولد الذي تبنّاه صيّاد سمكٍ من كالورمِن. فهو ليس الشخص الذي يبدو أنّه هو، مثلما يكتشف هو نفسه في «الحصان وصبيه».

بري: هذا الجواد الحربي أيضاً فائقٌ للعادي. فقد اختُطِف وهو مُهرٌ من غاباتِ نارْنيا، وبيع حصاناً عبداً في كالورمِن، وهو بلدٌ واقعٌ وراء بلا آرخيا وفي أقصى جنوبي نارْنيا. وتبدأ مغامرات بري عندما يحاول الفرار في «الحصان وصبيُّه».

أرافيس: هي طرقانة، نبيلةٌ من كالورمِن. إلا أنَّ فيها مزايا خيِّرة كثيرة تبرز إلى النور في «الحصان وصبيُّه».

هُوِين: فرسٌ حسّاسة حسنة الطباع، تتصادق مع أرافيس في «الحصان وصبيُّه».

الأمير كاسبيان: إنه ابن أخي الملك ميراز، ويُعرَف بلقب كاسبيان العاشر ابن كاسبيان، وهو ملك نارنيا الحقيقي (ملك النارْنيانيّين القدامى). كذلك يُعرَف بألقاب «تلماري نارْنيا»، و«سيِّد كيرپرافيل»، «وإمبراطور الجُزُر المنفردة». وهو يظهر في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوّابة الفجر»، و«الكرسيُّ الفضي»، و«المعركة الأخيرة».

ميراز: هو تلماريٌ من بلاد تلمار الواقعة بعيداً ما وراء الجبال الغربية (وأجداد التلماريّين أصلاً كانوا من عالمنا). وميراز هو مغتصب عرش نارْنيا في «الأمير كاسبيان».

ريبيتشيب: هو الفأر الرئيس. وهو الخادم المتواضع المتطوِّع لخدمة الأمير كاسبيان، ولعلَّه أكثر الفرسان بسالةً في نارْنيا كلِّها. فروسيَّته لا تُدانى، وكذلك شجاعته ومهارته في استعمال السيف. ويظهر ريبيتشيب في«الأمير كاسبيان»، و «رحلة جوّابة الفجر»، و«المعركة الأخيرة».

يُسطاس كلارنس (صغرون): يُسطاس ابن خالةٍ لأولاد آل پيفِنسي، يُضطر إدمون ولوسي أن يذهبا ويزوراه. إلاّ أنه يجد نارْنيا أشبهَ بصدمة. وهو يظهر في «رحلة جوّابة الفجر»، و«الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

جِلَ پُول: هي البطلة في «الكرسي الفضّي»، تذهب إلى نارنيا مع يُسطاس في مغامرته النارنيائيّة الثانية. وهي تأتي أيضاً لنجدة نارنيا في «المعركة الأخيرة».

الأمير ريليان: ابن الملك كاسبيان العاشر. وهو الأمير الضائع في نارنيا. فابحث عنه وجِدْه في «الكرسي الفضّيّ».

بِرْكهموم: ساكن مُستنقعات (سباخ) طويل القامة، من المُستنقعات الشرقية في نارنيا. شخص طويل يشكّل سلوكه الرزين جداً قناعاً لقلبه الصادق الوافرالشجاعة. يظهر في «الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

الملك تِريان: رجلٌ نبيلٌ وشجاع، آخر ملوك نارنيا. هو وصديقه «جوهر»، أحادي القرن، يخوضان القتال معاً في «المعركة الأخيرة».

شِفطة: قردٌ عجوز وقبيح، ينوي أن يتولّى حكم نارنيا، ويباشر أموراً لا يستطيع إيقافها في «المعركة الأخيرة».

لَغْزان: حمارٌ طيّب لم ينوِ قطُّ إيذاء أحد. غير أنّه ليس ذكيّاً جداً. وهو يقع ضحيّة لخداع شِفطة في «المعركة الأخيرة».

المحتويات

الفصل الأوّل

لوسي تتفحّص خزانة ملابس

عاش ذاتَ زمان أربعةُ أولاد، أسماؤهم بطرس وسوزان وإدمون ولوسي. وهذه القصة تحكي عن أشياءَ حدثت لهم عندما أرسلهم أهلهم بعيداً عن لندن في زمان الحرب بسبب الغارات الجويّة. وقد أرسلوهم إلى بيت أُستاذ عجوز يسكن في قلب الريف، على بعد ستة عشر كيلومتراً تقريباً من أقرب محطّة قطار، وثلاثة كيلومترات تقريباً من أقرب مكتب بريد. لم يكن الأستاذ متزوّجاً، وكان يسكن بيتاً كبيراً جدّاً تهتم به مُدبّرة منزل اسمُها السيّدة مكريدي وثلاث خادمات. (أسماؤهن إيڤه ومرغريت وبَتي، ولكنْ لا يُذكرن كثيراً في القصّة.) أمّا الأُستاذ فكان متقدّماً في السنّ كثيراً، وله شعر أبيض منفوش طالع على قسم كبير من وجهه فضلاً عن رأسه. وتقريباً حالمًا رآه الأولاد أحبّوه. ولكنْ في أوّل مساء لمّا خرج لملاقاتهم عند الباب الخارجيّ، كان منظره غريباً جدًّا حتّى إنّ لوسي (وهي الصُغرى) خافت منه قليلاً، وإدمون (وهو أكبر منها مباشرةً) أراد أن يضحك واضطُرّ أن يظلّ يتظاهر بأنّه

يتمخّط لإخفاء ذلك.

وما إن قال الأولاد للأستاذ: «تُصبح على خير!» وصعدوا إلى الطابق الأعلى ليبيتوا ليلتهم الأولى هناك، حتّى جاء الصبيّان إلى غرفة البنتين وأخذوا يتحدّثون في الأمر.

قال بطرس: «الظاهر أنّنا وُفّقنا بلا شكّ. ستكون إقامتنا هنا فاخرة تماماً. فهذا العجوز سيسمح لنا بأن نفعل أيّ شيء نريد».

فقالت سوزان: «أعتقد أنّه شيخٌ طيّب».

وقال إدمون: «أوه، كفى! لا تستمرّوا في هذا الحديث»، وقد كان مُتعَباً ويتظاهر بأنّه غير مُتعَب، الأمر الذي يجعله دائماً سيّء الطباع.

فسألته سوزان: «ماذا تقصد؟ على كلّ حال، حان وقت نومك!»

فقال إدمون: «ها أنت تحاولين أن تتكلّمي مثل الماما. ومَن أنتِ لتقولي متى يجب أن أنام؟ اذهبي أنتِ ونامي!»

وقالت لوسي: «أليس أحسنَ لنا جميعاً أن نأوي إلى السرير؟ سنتعرّض للتوبيخ إذا سمعَنا أحد نتكلّم هكذا هنا!»

فقال بطرس: «لا، لن يحدث هذا. أقول لكم إنّ هذا البيت هو من النوع الذي فيه لا يهتمّ أحد بما نفعله. وعلى كُلّ حال، لن يسمعونا. فالمسافة من هنا إلى غرفة السُفرة

تحتُ تستغرق عشر دقائق، وما أكثر الممرّات والأدراج من هنا إلى هُناك!»

ثمّ قالت لوسي فجأةً: «ما هذه الضجّة؟» وكان ذلك البيت أكبر بكثير ممّا سبق لها أن تصوّرت، حتّى إنّها شعرت بشيء من القشعريرة لمّا فكّرت بكلّ تلك الممرّات والأبواب المؤدّية إلى غُرف فارغة.

إلاّ أنّ إدمون قال: «ما هذا إلاّ طير، يا حمقاء!»

وقال بطرس: «هذه بُومة. لا بد أن يكون هذا المكان رائعاً للطيور. أنا ذاهب لأنام الآن. ولكنْ غداً نذهب ونستكشف. فربّما نجد أيّ شيء في مكان كهذا. أرأيتم تلك الجبال ونحن قادمون؟ والغابات؟ ربّما فيها نُسور. ربّما فيها غزلان. ومؤكّد أنّ فيها صُقوراً».

فقالت لوسي: «وحيوان الغُرير*!»

وقال إدمون: «وثعالب!»

وقالت سوزان: «وأرانب!»

ولكنْ لمّا طلع صباحُ اليوم التالي، كان المطر يهطل غزيراً دون توقُّف، حتّى إذا نظرتَ من النافذة إلى الخارج لا يمكنك أن ترى الجبال ولا الغابات، ولا حتى الجدول في البُستان.

* الغُرير: حيوان لاحم يزيد حجمه عن حجم الكلب بقليل. قصير القوائم والذنَب.

فقال إدمون: «طبعاً، سيظلُّ المطر يتساقط اليوم!» وكانوا قد فرغوا تواً من تناول الفَطور مع الأستاذ، وصعدوا إلى الغرفة التي خصّصها لهم في الطابق الأعلى، وهي غرفة طويلة ومنخفضة فيها نافذتان تُطِلّان على ناحية، ونافذتان أُخريان تُطِلّان على ناحية أُخرى.

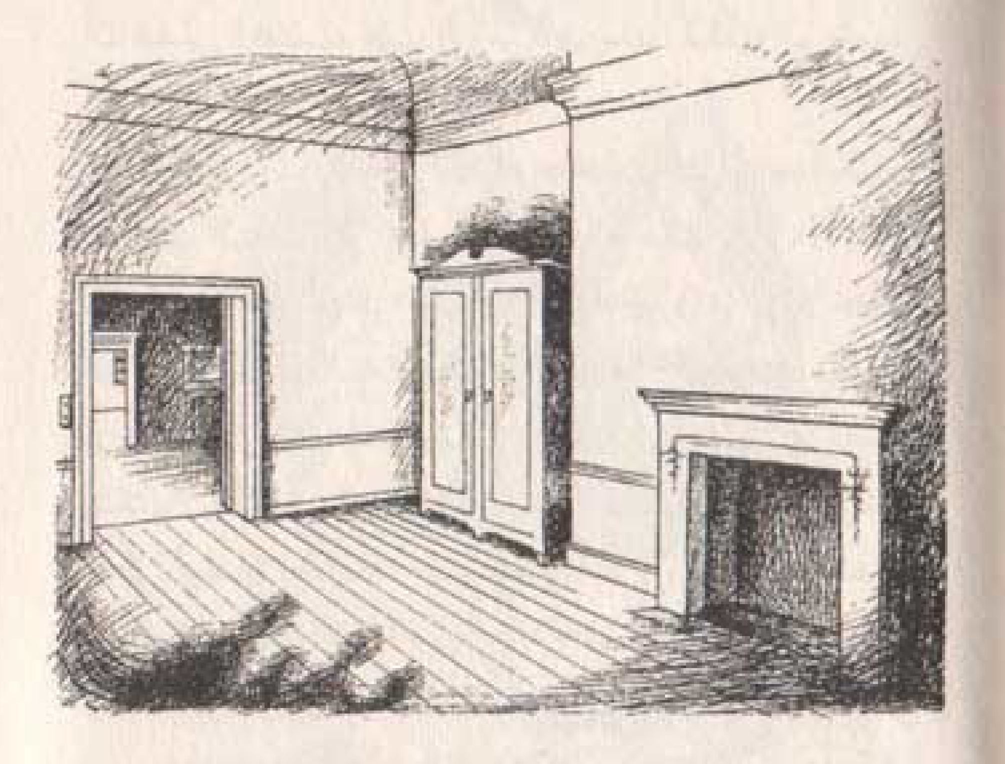
وقالت سوزان: «كُفّ عن التذمُّر، يا إدي. على الأرجح أنّها ستصحو بعد ساعة أو نحوها. وفي هذا الوقت نحن بخير. فلدينا هنا مذياع وكثير من الكتب».

فقال بطرس: «هذا لا يعنيني. فأنا سأستكشف البيت».

وافق الجميع على ذلك، وبهذه الطريقة بدأت المغامرات. وقد كان ذلك البيت من النوع الذي يبدو أنك لا تصل إلى آخِره أبداً، وكان فيه كثير من الأمكنة غير المتوقّعة. والأبواب القليلة التي جرّبوها أوّلاً كانت تنفتح على غرف نوم احتياطيّة فقط، كما توقّعوا جميعاً. لكنهم سرعان ما وصلوا إلى غرفة طويلة جدّاً مملوءة بالصُوَر، وهناك وجدوا طقم دروع؛ وبعدها غرفة كلُّ ما فيها أخضر، في إحدى زواياها قيثارة؛ ثمّ بعدها ثلاث درجات نزولاً وخمس درجات صعوداً، ثمّ ما يشبه بيتَ درج صغيراً فيه بابٌ يؤدّي إلى شُرفة، ثمّ مجموعة من الغُرَف تنفتح بعضها على بعض، وقد رُصِفت جوانبُها كُتباً، معظمها كتبٌ عتيقة جدّاً، وبعضها أكبر من الكتاب المقدّس الذي يُوضَع في الكنيسة. وبعد ذلك بوقت قصير تطلّعوا داخل غرفة كانت

شبه خالية إلّا من خزانة ثياب واحدة كبيرة من النوع الذي على بابه من الداخل مرآة. ولم يكن في الغرفة شيء آخر إطلاقاً ما عدا ذبابه زرقاء كبيرة ميتة على عتبة النافذة.

فقال بطرس: «لا شيء هنا!» وخرج الجميع خارجاً، ما عدا لوسي. فقد بقيت في الغرفة لأنّها اعتقدت أنّ فحص باب الخزانة أمرٌ يستحق التجربة، مع أنّها كانت شبه متأكّدة أنّ تلك الخزانة ستكون مُقفلة. لكنّها فوجئت لمّا انفتحت الخزانة بكلّ سهولة وتدحرجت منها كُرَتان صغيرتان من النفتالين الطارد للعُثّ.



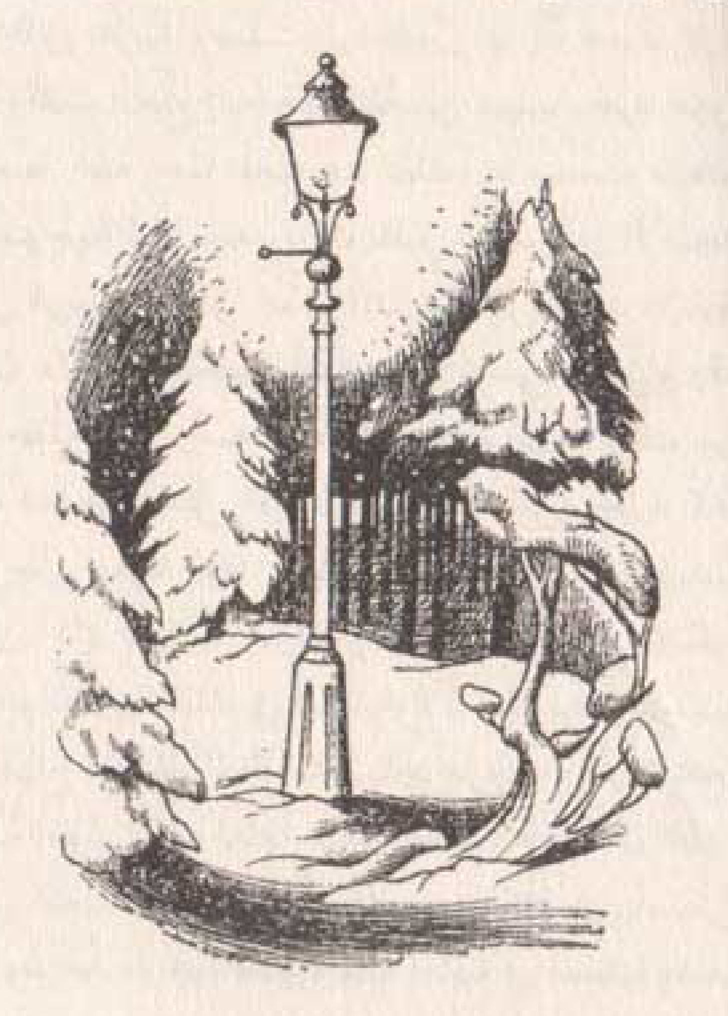
ألقت لوسي نظرة داخل الخزانة، فرأت عدة معاطف معلّقة فيها، معظمها من معاطف الفرو الطويلة. ولم

يكُن شيءٌ عند لوسي أحبُّ من رائحة الفرو وملمسه. فدخلت الخزانة حالاً، واندسّت بين المعاطف تُمسّح وجهها بفرائها، وقد تركت الباب مفتوحاً بالطبع، لأنّها كانت تعرف أنّه من الغباوة المُفرِطة أن تغلق عليك باب خزانةٍ دخلتها. وسرعان ما تقدّمت داخل الخزانة، فوجدت صفّاً آخر من المعاطف مُعلّقاً وراء الأوّل. كانت الظلمة شديدة في الداخل، فأبقت ذراعيها ممدودتين أمامها حتّى لا تصدم وجهها بظهر الخزانة. وخطت خُطوة أُخرى إلى الداخل، ثمّ خطوتين أو ثلاثاً، متوقّعةً دائماً أن تلمس الخشب تحت رؤوس أصابعها. لكنّها لم تلمس أيّ خشب.

مفكّرة لوسي، وهي تتقدّم داخلها أكثر مُزيحةً طيّات المعاطف الناعمة إلى هنا وهناك لتُوسّع مكاناً لها: «لا بدّ أن تكون هذه مجرّد خزانة ثياب كبيرة جدًّا!». ثمّ لاحظت أنّ شيئاً ما يُخشخِش تحت قدميها. ففكّرت: «لعلّها مزيد من كُرات النفتالين»، وانحنت كي تتلمّسها بيدها. ولكنّها بدل أن تلمس الخشب الناعم القاسي الذي يُغطّي أرضيّة الخزانة، أحسّت شيئاً طريّاً ومسحوقاً وشديد البرودة. فقالت: «ما أغرب هذا!» ثمّ تقدّمت أيضاً خُطوةً أو خُطوتين. وفي اللحظة التالية، تبيّن لها أنّ ما كان يُلامِس وجهها ويديها لم يعُد الفرو الناعم، بل صار شيئاً صُلباً وقاسياً، ينخز كالشوك أيضاً. فهتفت متسائلة: «عجباً! كأنّها أغصان شجر!» ثمّ شاهدت قُدّامها نوراً، على بُعد

بضعة سنتيمترات من المكان الذي يُفترَض أن يكون ظهر الخزانة فيه، بل على بُعدٍ بعيد. وأخذ شيء بارد وناعم يتساقط عليها. وبعد ذلك بقليل رأت أنّها واقفة وسط غابة في ظلام الليل، والثلج تحت قدميها فيما تتساقط عليها رقائقُه البيضاء الباردة.

شعرت لوسي بشيء من الخوف، لكنّها أحسّت كثيراً من حُبّ الاستطلاع والتشويق أيضاً. فنظرت إلى الوراء من فوق كتفها، وإذا بها ترى من بين جذوع



الشجر الكثيفة باباً لخزانة المفتوح، بل إنّها استطاعت أن تلمح الغرفة الفارغة التي منها انطلقت خارجاً. (كانت بالطبع قد أبقت الباب مفتوحاً، لأنّها كانت تعرف أنّ إقفال الإنسان باب خزانة على نفسه أمرٌ سخيف جدًّا.) وبدا لها أنّ نور النهار ما زال منتشراً هناك. وفكّرت: «يمكنني دائماً أن أرجع إذا حصل أي خطأ».

فأخذت تمشي إلى الأمام، والثلج يُخشخِش تحت قدميها، متوغّلةً وسط الغابة باتّجاه النور الآخر. وفي غضون عشر دقائق تقريباً، وصلت إليه فتبيّنَ لها أنّه عمود إنارة. وبينما وقفت تتطلّع إليه، مُتسائلةً عن سبب وجود عمود إنارة وسط غابة وعمّا تفعله بعد ذلك، إذ سمعت طقطقة أقدام متوجّهة إليها. وبعد ذلك بقليل برز من بين الأشجار شخص غريب الشكل جدًّا وكان يتجه إلى عمود الإنارة.

كان ذلك الشخص أطول من لوسي بقليل، وقد حمل مظلّة فوق رأسه، جعلها الثلج بيضاء. وكان من خصره فما فوق مثل الإنسان، لكن شكل رجليه كان يُشبِه رِجلَي معزاة (وقد غطّاهما شعر أسود لمّاع). وبدل القدمين، كان له ظِلفا معزاة. وكان له أيضاً ذيل، ولكنّ لوسي لم تلاحظ ذلك في البداية، لأنّه كان يرفعه بترتيب على الذراع الحاملة للمظلّة لئلاّ يتجرجر وراءه على الثلج. وقد لَفّ حول رقبته لفاعاً صوفياً أحمر، كما كان جلده يميل إلى اللون الأحمر أيضاً. أمّا وجهه فكان غريباً، لكنْ صغيراً ومَرِحاً، ذا لحية قصيرة شبه مدبّبة في أسفلها وشعر

جَعد، وقد طلع من شعره قرنان، كلٌّ واحدٍ منهما على ناحيةٍ من مُقدّم رأسه. كان يحمل بإحدى يديه مظلّة، كما قُلنا، وباليد الأُخرى بضع رِزَم من الورق البني؛ ممّا جعله يبدو - برِزَم الورق والثلج - كأنّه آتٍ من التبضّع قبل عيد الميلاد. لقد كان فُوناً. ولمّا رأى لوسي أجفل من المفاجأة وأوقع رِزَم الورق كلّها، هاتفاً: «ما هذا؟ عَساهُ خير!»

الفصل الثاني

ما وجدَتْه لوسي هناك

قالت لوسي: «مساء الخير». ولكنَّ الفُون كان منشغلاً بلمّ رِزَمه بحيث لم يردَّ التحيّة أوّل الأمر. ولمّا انتهى، انحنى لها انحناءةً بسيطة وقال: «مساء الخير، مساء الخير. سامحيني، لا أُريد أن أتطفّل عليكِ. ولكنْ هل أكون مُخطئاً إذا اعتقدتُ أنك واحدة من بنات حوّاء؟»

فقالت وهي غير فاهمة ما قاله تماماً: «اسمي لوسي».

وقال الفون: «ولكنّك - عفواً - ما يقولون له بنت؟»

قالت: «طبعاً، أنا بنت».

«أأنتِ بالحقيقة من البَشَر؟»

فقالت: «طبعاً، أنا من البشر»، وهي ما تزال مُتحيِّرة قليلاً.

قال الفُون: «أكيد، أكيد. ما أغباني! ولكنّي ما رأيتُ قبلاً قطُّ واحداً من بني آدم ولا واحدة من بنات حوّاء.

أنا مسرور. أعني ...» ثمّ توقّف وكأنّه كان سيقول شيئاً لم يقصده، لكنّه تذكّر في الوقت المناسب، فتابع: «أنا مسرور، مسرور. اسمحي لي بأن أُعرّفك بنفسي: اسمي طَمنوس».

فقالت لوسي: «يسرُّني كثيراً أن أُقابلك، يا سيّدُ طَمنُوس».

وقال طمنوس: «هل لي أنْ أسألكِ، يا لوسي بنتَ حوّاء، كيف دخلتِ نارْنيا؟»

فقالت لوسي: «نارنيا؟ ما هي؟»

«هذه بلاد نارنيا، حيث أنتِ الآن. وهي كلُّ الأراضي الواقعة بين عمود الإنارة وقصر كَيرپراڤيل العظيم على ساحل البحر الشرقيّ. وأنتِ ... أنتِ جئتِ من غابات الغرب البريّة؟»

قالت لوسي: «أنا ... أنا جئتُ من خزانة الثياب في الغرفة الخالية».

فقال طمنوس بصوتٍ يغلب عليه الأسى: «آه! لو أنّني اجتهدتُ في درس الجغرافيا لمّا كنتُ فوناً صغيراً، لكنتُ أعرف بلا شكّ شيئاً عن هذه البلدان الغريبة. أمّا الآن، فقد فات الأوان».

قالت لوسي وهي تكاد تضحك: «ولكنّها ليست بُلداناً أبداً. إنّها هُناك، وراءنا تماماً - على الأقلّ - لستُ متأكّدة. والدنيا صيف هناك».

قال طمنوس: «أمّا في نارنيا فالآنَ شتاء، وطالما كانت

الحال هكذا من زمان، ولا بدَّ أن نُصاب بالرَّشح إن وقفنا نتحادث هنا وسط الثلج. يا بنت حوّاء الآتية من بلاد غُرفالية، حيث الصيف الدائم يعمُّ مدينة خَزانثياب المتألّقة، ما رأيك لو تزورينني وتشربين الشاي معي؟»

فقالت لوسي: «شكراً جزيلاً يا سيِّد طمنوس إنَّما كنتُ أتساءل هل حان وقت رجوعي إلى دياري».

فقال الفون: «بيتي وراء تلك الزاوية فقط. وفيه نارٌ متأجِّجة، وخبز محمَّص، وسردين، وحلوى».

وقالت لوسي: «هذا لطف زائد منك. ولكن عليَّ ألَّا أتأخَّر كثيراً».

فقال طمنوس: «لو تشبكين ذراعَكِ بذراعي، يا بنت حوّاء. يمكنني أن أحمل المظلَّة فوق كِلَينا. تلك هي الطريق. فهيّا بنا الآن!»

وهكذا وجدَت لوسي نفسها تمشي في الغابة يداً بيد مع هذا المخلوق الغريب، وكأنَّهما يعرفان أحدُهما الآخر طول عمرهما.

وما ابتعدا كثيراً حتّى وصلا إلى مكانٍ صارت الأرض فيه وعرة وملأى بالصخور هنا وهناك، وحواليها تلال صغيرة فوق وتلال صغيرة تحت. وفي قعر وادٍ صغير، انعطف السيِّد طمنوس فجأةً وكأنَّه يهمُّ بالدخول رأساً إلى قلب صخرة كبيرة جداً. ولكنْ في آخِر لحظة عرفت لوسي أنَّه كان يأخذها إلى مدخل مغارة:

وحالما صارا داخل المغارة، أخذت عينا لوسي تطرفان



في ضوء نارٍ من حطب. ثمَّ انحنى السيِّد طمنوس والتقط جمرة من النار بملقط صغير مُرتَّب، وأوقد بها سراجاً. وقال: «والآن لن نتأخَّر طويلاً»، ثمَّ وضع حالاً غلّاية شاي على النار.

خُيِّل إلى لوسي أنَّها لم تزُر قبلاً مكاناً بذلك الجمال. كان مغارة نظيفة صغيرة جافَّة من الحجر المحمَرّ، على أرضها سجّادة وكُرسيّان صغيران (قال عنهما طمنوس:

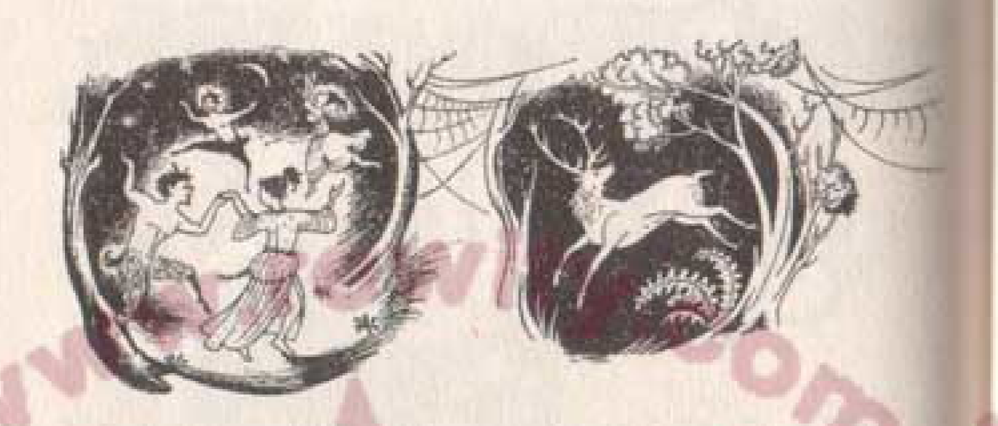
«واحد لِي، وواحد لضيف عزيز») وطاولة وخزانة لأدوات المطبخ. وكان فوق الموقد رفٌّ عليه صورة فون كبير السنّ أشيب اللحية. وفي إحدى الزوايا بابٌ ظنّت لوسي أنّه يؤدّي حتماً إلى غرفة نوم السيّد طمنوس. وإلى أحد



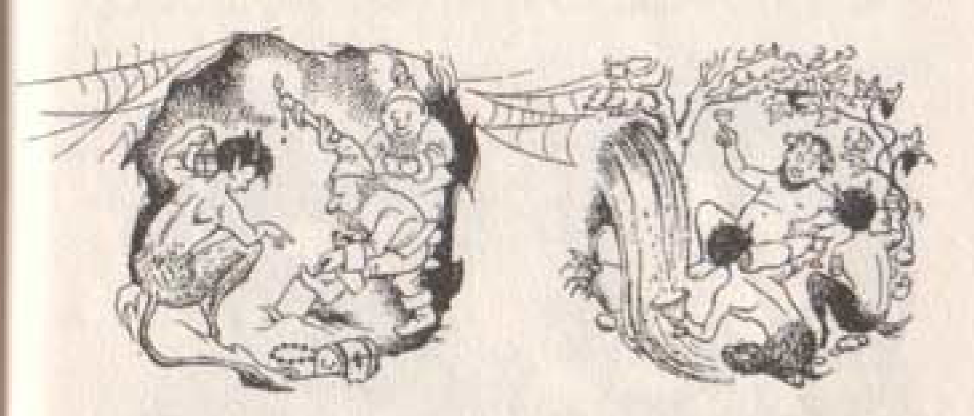
الحيطان بضعة رفوفٍ مرصوفة بالكُتب. وقد تطلّعت لوسي إلى هذه فيما كان الفون يضع عُدّة الشاي، فقرأت عناوين مثل «سيرة حياة سايلينوس ورسائله»، «الحوريّات وأساليبُهنّ»، «النُّسّاك وحرّاس الطرائد»، «دراسة في الأساطير الشعبيّة»، «هل الإنسان خُرافة؟»

ثمّ قال الفون: «والآن، تفضّلي يا بنت حوّاء!»

كان شاياً رائعاً بالفعل. وقد كان لكلٍّ منهما بيضة بنّيّة مسلوقة قليلاً، ثمّ سردين على خُبز محمّص، ثمّ خُبز مُحمّص مدهون بالزبدة، ثمّ خبز محمّص مع عسل، ثمّ



كعك مُغطًّى بالسُكّر. ولما ملّت لوسي من الأكل، بدأ الفون يتكلّم. وقد قصّ عليها حكايات رائعة عن الحياة في الغابة. وحكى عن راقصي نصف الليل، وكيف كانت الحوريّات الساكنات في الآبار وحوريّات الغابة المُقيمات في الأشجار يأتين ليرقصن مع الفُونات، وعن حفلات الصيد الطويلة وراء الغزال الأبيض بياض الحليب والذي يقدر أن يُحقّق لك أمانيك إذا أمسكتَ به، وعن إقامة الولائم والبحث مع أقزام الغابة البرّيين الحُمْر عن الكنوز المخبّأة في المناجم والكهوف العميقة بعيداً تحت أرض الغابة، ثمّ عن الصيف، حين تكون الغابات خضراء ويأتي لزيارتهم سايلينوس العجوز على حماره السمين، وأحياناً باخوس بنفسه: وعندئذٍ تجري السواقي بالنبيذ بدلاً من الماء، ويعمُّ الغابة كلها موسمٌ من الفرح والمرح يدوم أسابيع بلا انقطاع. ثمّ أضاف باكتئاب: «وليس كما يسود الشتاء دائماً الآن!» وحتّى يُسلّي نفسه، ويُسلّيها، أخرج مزماراً



صغيراً من صندوقه المُلقى على منضدة الزينة، بدا كأنّه مصنوع من القصب الدقيق، وأخذ يعزف. فإذا باللحن الذي عزفه يجعل لوسي ترغب في البكاء والضحك والرقص والنوم، كلّها في وقتٍ واحد. ولا بُدّ أنّ ساعاتٍ طويلة مرّت قبل أن انتفضَتْ لوسي قائلة:

«أُوه، يا سيّد طمنوس! أنا آسفة لاضطراري إلى إيقافك. فأنا أُحبُّ هذا اللحن فعلاً. إنّما يجب عليَّ بالحقيقة أن أرجع إلى دياري. ما كنتُ أنوي إلّا البقاء دقائق معدودة!»

فقال الفون: «ألا تعرفين أنّ ذلك لا ينفع الآن؟» مُلقياً مزماره جانباً، وهازّاً رأسه أمامها بحزن.

فهبّت لوسي واقفةً وقد بدأ الخوف يتسرّب إليها، وقالت: «لا ينفع؟ ماذا تقصد؟ يجب أن أذهب إلى دياري الآن فوراً. لا بد أنّ الآخرين يتساءلون عمّا جرى لي». ولكنّها بعد لحظةٍ سألته: «سيّد طمنوس! ما مشكلتك؟» لأنّ عينيه البنّيّتين اغرورقتا ثمّ بدأت الدموع تسيل على



خدّيه، وسرعان ما صارت تجري من على رأس أنفه، وأخيراً غطّى وجهه بيديه وبدأ يبكي ويبكي.

ثمّ قالت لوسي وهي متضايقة كثيراً: «سيّد طمنوس! سيّد طمنوس! كُفّ عن البُكاء، كُفّ! ما خطبُك؟ ألستَ بخير؟ عزيزي السيّد طمنوس، هلّا تخبرني بمشكلتك!»

ولكنّ الفون ظلّ يبكي ويتنهّد كما لوكان قلبه سينفطر. حتّى إنّه لم يكفّ عن البكاء أيضاً لمّا قامت لوسي وطوّقته بذراعيها، وأعطته منديلها ليمسح دموعه. وإنّما أخذ المنديل وظلّ يستعمله، عاصراً إيّاه بكِلتا يديه كُلّما تبلّل بالدموع وما عاد ينفع ، حتّى صارت لوسي واقفة فوق بقعة رطبة.

ثمّ زعقت لوسي في أُذنه وهي تهزّه: «سيّد طمنوس!

كفى. كُفَّ عن البكاء حالاً! ألا تستحي من نفسك وأنت فون كبير عظيم؟ على أيِّ شيء في الدنيا تبكي؟»

فقال متنهّداً: «أوه، أوه! أنا أبكي لأنَّني فون سيّىء جدًّا».

قالت لوسي: «لا أظنُّ أنك فون سيّىء أبداً. بل أعتقد أنّك فون طيّب جدًّا. أنت أحسنُ فونٍ رأيتُه على الإطلاق!»

فأجابها السيّد طمنوس بين الأنّة والآهة: «آه، آه! ما كنت لتقولي هذا لو عرفتِ. لا، أنا فُون سيّىء. ولا أعتقد أنه كان يوماً فونٌ أسوأ منّي من بداية العالم!»

وسألت لوسي: «ولكنْ ماذا فعلت؟»

فقال طمنوس: «أبي العجوز – وهذه صورته هناك على رفّ الموقد – لم يكُن ليفعل شيئاً مثل هذا قطّ!»

وسألته لوسي: «شيئاً مثل ماذا؟»

قال: «شيئاً مثل ما فعلتُ أنا، إذ قُمت بخدمة الساحرة البيضاء. ذلك ما أنا عليه. أنا أجيرٌ عند الساحرة البيضاء».

«الساحرة البيضاء؟ مَن هي؟»

«آه، إنّها مَن أوقعت نارْنيا كلّها تحت سيطرتها التامّة. إنّها مَن تجعل الدنيا شتاءً كلَّ حين. شتاء كلَّ حين بلا عيد ميلاد: فكّري في هذا!»

قالت لوسي: «ما أسوأ هذا! ولكنْ مقابل أيّ شيء تدفع لك أجرة؟»

فقال طمنوس آنّاً أنّةً من أعماقه: «هذا أسوأُ كلِّ شيء. أنا أخطف لها الصغار. تطلّعي إليَّ يا بنت حوّاء! هل تُصدِّقين أنّني من ذلك النوع من الفونات الذي يُقابل ولداً بريئاً في الغابة، ولداً ام يؤذني أيّ أذى، فأتظاهر بمصادقته، وأدعوه إلى مغارتي، وكلُّ ذلك لهَدهدته حتّى ينام ثمَّ أسلّمه إلى يد الساحرة البيضاء؟»

قالت لوسي: «كلّا! أنا متأكّدة أنّك لا تفعل شيئاً مثل هذا».

فقال الفون: «بلى، بلى!»

فقالت لوسي متمهّلة (لأنّها أرادت أن تكون صادقة ومع ذلك لا تقسو عليه كثيراً): «حسناً، حسناً. كان هذا سيّئاً جدًّا. ولكنّك نادم عليه كثيراً حتّى إنّني مُتأكّدة أنّك لن تفعله ثانية أبداً».

أجابها الفون: «يابنت حوّاء، ألا تفهمين؟ ليس هذا شيئاً قد فعلتُه. ولكنه شيءٌ أفعله في هذه اللحظة بالذات!»

فصرخت لوسي، وقد شحب وجهها جدًّا: «ماذا تقول؟»

قال طمنوس: «أنتِ الصغيرة! فلديَّ أوامر من الساحرة البيضاء بأنّي إذا قابلتُ يوماً واحداً من بني آدم أو واحدة من بنات حوّاء في الغابة فعليَّ أن أُسلّمَهما إليها. وها أنتِ أوّل مَن أُقابله من هؤلاء. وقد تظاهرت بأنّي صديق لكِ ودعوتُكِ إلى الشاي، وكنت طول الوقت

أنتظر حتّى تنامي فأذهب إليها وأُخبرها».

فقالت لوسي: «أوه، ولكنك لن تفعل هذا يا سيّد طمنوس. لن تفعله، أليس كذلك؟ بالحقيقة، بالحقيقة عليك ألّا تفعله!»

فأجاب وقد عاد يبكي: «وإن كنتُ لا أفعل، فإنّها ستعرف بالتأكيد. ولَسوف تقطع ذيلي، وتقلع قرنيَّ، وتنتف لحيتي، وسوف تهزُّ عصاها فوق ظِلفَيَّ المشقوقَين وتحوّلهما إلى حافرَين قاسيين بشعين كحوافر حصانٍ تعِس. وإذا غضبت عليَّ غضباً شديداً وخاصّاً فإنّها ستُحوّلني حجراً فأكون مجرّد تمثال فون في بيتها المروّع إلى أن تمتلىء العروش الأربعة في كَيرِبرافيل ... وتعلم العِزّة الإلهيّة متى يحصل ذلك وهل يحصل على الإطلاق!»

قالت لوسي: «أنا آسفة جدّاً يا سيّد طمنوس. ولكن دعني أذهبْ إلى دياري».

فقال الفون: «بالطبع سأدعك تذهبين. وقد فهمتُ هذا الآن. ما كنتُ أعرف كيف هم البشر قبل مقابلتك. بالطبع لا يمكنني أن أُسلّمك للساحرة، خصوصاً بعدما تعرّفتُ بكِ. ولكنّ علينا الانطلاق في الحال. سأرافقك رجوعاً حتّى عمود الإنارة. وأعتقد أنّك من هناك تقدرين أن تسلكي طريق العودة إلى غُرفالية وإلى خزانثياب؟»

قالت لوسي: «أنا متأكّدة أنّني أقدر!»

فقال طمنوس: «علينا أن نذهب بأهدأ ما يمكن.

فالغابة كلّها تغصّ بجواسيسها. حتّى بعض الأشجار في صفّها!»

ثم نهضا كلاهما، وتركا عُدّة الشاي على الطاولة. ومرّةً أخرى حمل السيّد طمنوس مظلّته وأعطى لوسي يده، وخرجا وسط الثلج. ولم تكن رحلة العودة قط مثل رحلة المجيء إلى مغارة الفون. فقد تسلّلا بأسرع ما يمكنهما، دون أن ينطقا بكلمة، والتزم طمنوس أشدَّ الأماكن ظلاماً. حتّى إذا وصلا إلى عمود الإنارة، تنفّست لوسي الصُعَداء.



وسألها السيّد طمنوس: «أتعرفين طريقك من هنا، يا بنت حوّاء؟»

فتطلّعت لوسي محدّقةً ما بين الأشجار، واستطاعت أن ترى في البعيد بُقعةً من الضوء ظهرت مثل نور النهار، فقالت: «نعم، أستطيع أن أرى باب خزانة الثياب!»

فقال الفون: «إذاً، انطلقي إلى ديارك بأسرع ما يمكنك. وهلاّ، هلاّ تُسامحينَني على ما نويتُ أن أفعله بك!»

قالت لوسي وهي تُصافِحه باليد بحرارة: «طبعاً، طبعاً! وأرجو فعلاً ألا تقع في مشاكل كبيرة بسببي».

فقال لها: «وداعاً، يا بنت حوّاء. ألعلّي أقدر أن احتفظ بالمنديل؟»

«مؤكّد!» قالتها لوسي، ثُمَّ ركضت نحو بقعة الضوء البعيدة بأسرع ما تقدر رجلاها أن تحملاها. وبعد قليل، بدلاً من الشعور بالأغصان الخشنة تُلامِسها، أحسَّت المعاطف. وبدلاً من الثلج المخشخِش تحت قدميها، أحسَّت الألواح الخشبيّة. وإذا بها فجأةً تجد نفسها وهي تقفز خارج خزانة الثياب إلى ذات الغرفة الخالية التي منها بدأت تلك المغامرة كلّها. فأغلقت باب الخزانة بإحكام خلفها، ثمّ تطلّعت حواليها وهي تلهث بشدّة. كانت السماء ما تزال تُمطِر، وتمكّنت من سماع أصوات الآخرين في الرواق. فصاحت:

«أنا هُنا. أنا هنا! لقد رجعتُ، وأنا بخير».

الفصل الثالث

إدمون وخزانة الملابس

ركضت لوسي خارجةً من الغرفة الخالية إلى الممرّ، حيث التقت الآخرين. وقالت مكررةً: «كلُّ شيء بخير. لقد رجعت!»

فسألت سوزان: «عن أيّ شيء تتكلّمين، يا لوسي؟»

قالت لوسي مدهوشةً: «ماذا؟ أما كنتم كلّكم تتساءلون أين كُنت؟»

وقال بطرس: «لقد كُنتِ مختبئة، صحيح؟ لوسي الكبيرة المسكينة مختبئة ولم يلاحظ أحد! عليكِ أن تختبئي مدّةً أطول إذا أردتِ أن يبدأ الناس بالبحث عنك».

فقالت لوسي: «ولكنّي كنت في مكان بعيد، ساعاتٍ وساعات!» وحينئذٍ حدّق الآخرون كلُّهم بعضُهم إلى بعض.

ثمَّ قال إدمون ناقفاً رأسه بإصبعه: «معتوه، معتوه جدًّا!»

وسأل بطرس: «ماذا تقصدين، يا لُو؟»

فأجابت لوسي: «ما قُلتُه تماماً. فبعد الفطور بقليل

دخلت خزانة الثياب، وقضيت ساعات وساعات في مكان بعيد، وشربتُ شاياً، وحدثت أشياء كثيرة».

قالت سوزان: «لا تكوني سخيفة، يا لوسي. لقد خرجنا من تلك الغرفة قبل قليل فقط، وأنتِ كُنتِ هُناك عندئذٍ».

وقال بطرس: «ليست سخيفة أبداً، فهي تؤلّف قصّة مضحكة. أليس كذلك، يا لُو؟ ولماذا لا تفعل هذا؟»

فقالت: «لا، يا بطرس، أنا لا أؤلّف قصصاً. إنها... إنها خزانة سحريّة، في داخلها غابة والثلج يتساقط فيها، وفُون وساحرة، واسمُ الغابة نارنيا. تعالَوا تَروا!»

لم يعرف الآخرون ماذا يظنون. ولكنّ لوسي كانت متحمّسة كثيراً بحيث رجعوا معها إلى الغرفة. فاندفعت قبلهم، وفتحت باب الخزانة على وسعه، وصاحت: «هيّا الآن! ادخلوا وانظروا بأنفسكم!»

فأدخلت سوزان رأسها في الخزانة وأزاحت معاطف الفرو، قائلةً: «كم أنتِ غبيّة! ما هذه إلّا خزانة ثياب عاديّة. ها هو ظهرها الخشبيّ».

عندئذٍ تطلّع الجميع داخلاً، وأزاحوا المعاطف. فرأوا كلُّهم - ولوسي نفسها رأت - خزانة ثياب عاديّة تماماً. لم تكن فيها غابة ولا ثلج، بل ظهر الخزانة فقط، وقد دُقّت فيه مسامير التعليق. ثمّ دخل بطرس وتلمّس الخشب بأصابعه ليتأكّد أنّه صُلب وثابت.

ولمّا خرج من جديد، قال: «يا لكِ من محتالة بارعة،

يا لُو! لقد ضحكتِ علينا فعلاً. إنّني أعترف بهذا. ونحن صدّقناكِ».

فقالت لوسي: «لم تكن هذه حيلة، بل الحقّ والصدق! كان كلُّ شيء مختلفاً قبل قليل. صدّقوني، هذه هي الحقيقة».

وقال بطرس: «هيّا يا لُو! لقد جاوزتِ الحدَّ قليلاً. قد قمتِ بمزحتك. أليس الأفضل الآن أن تتوقفي؟»

فاحمرَّ خدّا لوسي كثيراً، وحاولت أن تقول شيئاً، مع أنّها لم تكَد تعرف ما نوَت أن تقوله، وانفجرت باكيةً.

وعلى مدى الأيّام القليلة التالية كانت لوسي تعسة جدّاً. كان من السهل أن تُسوّي الأمر مع الآخرين في أيّة لحظة، لو أنّها فقط قدرت أن تجبر نفسها على الاعتراف بأنّ القصّة كلّها كانت مُلفّقة على سبيل الفُكاهة. ولكنّ لوسي كانت بنتاً صادقة جدّاً، ولم تقدِر أن تحمل نفسها على قول ذلك. وإذ اعتقد الباقون أنها كانت تكذب، وكذباً سخيفاً أيضاً، عاملوها معاملة ضاعفت تعاستها كثيراً. كان الولدان الأكبران قد فعلا ذلك من غير قصد، وأمّا إدمون فكان هاوي إغاظة، وقد تعمّد الإغاظة هذه المرّة. فكان يضحك على لوسي ويستهزىء بها، ويسألها تكراراً هل وجدت بُلداناً أخرى جديدة داخل الخزائن الأخرى المنتشرة في البيت كلّه. وما زاد الوضع سوءاً أنّ تلك الأيّام كان يجب أن تكون مُفرِحة. فالطقس كان جميلاً، وكانوا يقضون كلَّ نهارٍ من الصباح إلى المساء

في أحضان الطبيعة، حيث يسبحون ويتصيّدون السمك ويتسلّقون الشجر ويستلقون على العُشب. ولكنّ لوسي لم تقدر أن تتمتّع جيّداً بأيّ شيء من ذلك. فسارت الأمور على هذا المنوال حتّى جاء اليوم الماطر التالي.

ذلك اليوم، عندما حلّ العصر ولم تظهر أيّة إشارة إلى تحسُّن في الطقس، قرّر الأولاد أن يلعبوا لعبة الغُمَيضة. وكان دور سوزان في إغماض العينين. فحالما تفرّق الآخرون ليختبئوا، ذهبت لوسي إلى غُرفة الخزانة. وما قصدت أن تختبىء في الخزانة، لأنّها كانت تعرف أنّ ذلك سيجعل الآخرين يعودون إلى التحدُّث عن المسألة التعسة كلّها. ولكنّها أرادت فعلاً أن تُلقي نظرة أخرى داخل الخزانة، لأنّها الآن كانت قد بدأت هي نفسها تتساءل عن نارنيا والفون: أكانا مجرّد حلم. وقدكان البيت كبيراً ومعقّداً جداً ومملوءاً بأماكن الاختباء، بحيث اعتقدت أنّ الوقت يتّسع لإلقاء نظرة داخل الخزانة اوّلاً ثمّ الاختباء في مكان آخر. لكنّها ما إن وصلت إلى الخزانة، حتّى سمعت وقع أقدام في الممرّ خارجاً. وعندئذٍ لم يعُد أمامها إلاّ القفز إلى داخل الخزانة وإبقاء الباب مغلقاً وراءها. إلاّ أنّها لم تُقفِل الباب كليّاً، لأنّها كانت تعرف أنّ إقفال الإنسان باب خزانة على نفسه أمرٌ سيّئ جدّاً وينطوي على حماقة، حتّى لو لم تكن تلك الخزانة سحريّة.

أمّا وقع الأقدام فكان صادراً عن إدمون. وقد دخل الغرفة تماماً في الوقت المناسب ليرى لوسي تختفي داخلها. فقرّر حالاً ان يدخلها هو أيضاً، ليس لأنّه اعتقد أنّها مكان

صالح للاختباء بشكل مخصوص، بل لأنّه أراد أن يستمرّ في إغاظة لوسي بشأن بلدها الخيالي. وفتح باب الخزانة، فإذا المعاطف مُعلّقة كالعادة، ورائحة النفتالين فائحة، والظلام والصمت مُخيّمان، ولا أثرَ للوسي. فقال لنفسه: «إنّها تظنّ أنّني سوزان وقد جاءت لكشف مخبإها، ولذلك لبدت في الخلف ساكتة!» ثمّ قفز إلى الداخل وأقفل الباب، ناسياً أيّة حماقة تكمن في فعل ذلك. وأخذ يتلمّس في الظلام لعلّه يجد لوسي. كان يتوقّع أن يجدها في غضون ثوانٍ قليلة، وفوجئ كثيراً لمّا لم يجدها. وقرّر أن يفتح باب الخزانة من جديد لإدخال بعض النور، لكنه لم يجد الباب. لم يعجبه ذلك قطّ، وبدأ يتلمّس طريقه مذعوراً في كلّ اتّجاه. حتّى إنّه نادى عالياً: «لوسي، لُو! أين أنتِ؟ أنا أعرف أنّكِ هنا».

لم يسمع إدمون أيّ جواب، ولاحظ أنّ صوته بالذات كان له نغم غريب، لا يُشبه الصوت الذي تتوقّع سماعه

داخل خزانة، بل هو من نوع الصوت الذي تسمعه في الهواء الطلق. وتنبَّه إدمون أيضاً إلى أنَّه يشعر بالبردِ بشكل غير متوقَّع. ثم رأى نوراً، فقال:

«الحمد لله! يظهر أنَّ الباب انفتح وحده!»

نسي إدمون أمر لوسي، وتقدَّم صوب النور، معتقداً أنَّه متوجِّه إلى باب الخزانة. ولكنَّه بدل أن يجد نفسه خارجاً إلى الغرفة الفارغة، وجد نفسَهُ يخرج من ظلال بعض أشجار الشربين المعتمة إلى فسحة مكشوفة وسط غابة.

كان تحت قدميه ثلجٌ ناشف هَشّ، وعلى أغصان الشجر ثلجٌ أكثر. وقد ظلَّلت رأسه سماء زرقاء باهتة، كالتي يراها المرء صباحاً في يومِ صحو من أيّام الشتاء. وأمامه تماماً رأى الشمس من بين جذوع الشجر وهي تطلع توّاً، حمراء وجليّة جدًّا. وقد كان كلُّ شيء هادئاً تماماً، كما لو كان هو المخلوق الحيّ الوحيد في تلك الأرض. حتّى إنّه لم يكُن بين الأشجار لا عصفور أبي حنّ ولا سنجاب واحد، وقد امتدَّت الغابة في كلِّ ناحية على مدى نظره. فارتجف برداً.

عندئذٍ تذكَّر أنّه كان يُفتِّش عن لوسي، وأيضاً كم كان ثقيلاً في ضحكه على «بلدها الخياليّ» الذي تبيَّنَ له الآن أنّه ليس خيالياً أبداً. واعتقد أنّها لا بدَّ أن تكون في مكانٍ ما على مقربة منه، فنادى: «لوسي، لوسي! أنا هنا أيضاً... إدمون».

فما كان جواب.

وفكَّر إدمون: «إنّها غضبانة عليَّ بسبب كلّ ما كنتُ أقوله عنها مؤخَّراً». وعلى الرغم من ذلك لم يحب أن يعترف بأنّه كان مخطئاً. كذلك أيضاً لم يحبَّ كثيراً أن يكون وحيداً في ذلك المكان الغريب البارد الهادىء، فنادى ثانيةً:

«رُدّي عليَّ، يا لُو! أنا آسفِ لأنّي لم أُصدِّقْكِ. إنّي أعرف الآن أنّك كنتِ صادقة دائماً. رجاءً، اخرجي من مخبإك. دعينا نتصالح!»

وأيضاً لم يكُن جواب.

فقال إدمون لنفسه: «إنّها تتصرَّف تصرُّف بنت تماماً، تجلس معبّسةً في مكان ما ولا تقبل أيَّ اعتذار». ثمَّ تطلَّع حواليه من جديد، فرأى أنَّ المكان لا يعجبه كثيراً، وكاد يُقرِّر أن يرجع إلى البيت، وإذا به يسمع من مكان بعيد جدّاً في الغابة صوت أجراس. فأصغى، وإذا بذلك الصوت يقترب إليه أكثر فأكثر، وأخيراً لمح مزلجة يجرُّها غزالان.

كان الغزالان بحجم حصانين قزمين تقريباً، ووبرهما أبيض بياضاً يجعل حتّى الثلج يكاد يبدو غير أبيض مقارنةً

بهما. وكانت قرونهما المتفرّعة ذهبيّة اللون، وصارت تلمع كشيء مشتعل لمّا وقع عليها ضوء الشمس الشارقة. أمّا طقم الغزالين فكان من سيور الجلد القرمزيّ، وقد تدلّت منه أجراس كثيرة. وعلى المزلجة، سائقاً الغزالين، قعد قزم سمين يبلغ طوله أقلّ من مِتر، لو كان واقفاً، وكان لابساً فرو دبّ قُطبيّ، وعلى رأسه قُبّعة حمراء تتدلّى من أعلاها شُرّابة ذهبيّة طويلة. أمّا لحيته الكبيرة فقد غطّت ركبتيه وأغنته عن بطّانيّة. ولكنْ وراءه، على مقعد أعلى بكثير في وسط المزلجة، جلس شخص مختلف تماماً: سيّدة عظيمة أطول قامةً من أيّ امرأة سبق أن رآها إدمون. وهي أيضاً كانت مكسوّة بالفرو الأبيض حتّى أعلى رقبتها، وبيدها اليُمنى عصا ذهبيّة طويلة مستقيمة، وعلى رأسها تاجٌ من ذهب. أمّا وجهها فكان أبيض، لا شاحباً فقط، بل أبيض مثل الثلج أو الورق الأبيض أو السُّكّر الناعم، ما عدا فمها الشديد الاحمرار. وكان وجهها جميلاً من بعض النواحي، لكنّه كان ينمّ عن كبرياء وبرودة وصرامة.

وكانت المزلجة جميلة المنظر إذ أقبلت تنزلق على الثلج صوب إدمون، فيما الأجراس تُجلجل والقزم يفرقع بسوطه، والثلج يتطاير إلى كلّ جهة.

ثمّ قالت السيّدة: «قِف!» فشدّ القزم زمام الغزالين بقوّة حتّى كادا يقعدان على الأرض. ثمّ تمالكا نفسيهما ووقفا ينفخان ويعضّان لجامَيْهما. وفي الهواء البارد جدًّا، بدا النفس الخارج من مناخرهما كأنّه دخان. ثمّ حدّقت

السيّدة إلى إدمون تحديقاً وقالت:

«هيّا، قُلْ لي ما أنت!»

فقال إدمون بشيءٍ من الاضطراب: «أنا – أنا – اسمي إدمون»، ولم تكن طريقة نظرها إليه تعجبه.



فعبست السيدة وسألته، وقد ازدادت ملامحها صرامةً: «أهكذا تُخاطِب ملكة؟»

قال إدمون: «سامحيني، يا صاحبة الجلالة، لم أعرِف!»

فصاحت: «ألا تعرف ملكة نارنيا؟ هَه! إذاً ستعرفنا معرفة أفضل. ولكنْ أعود فأسألك: ما أنت؟»

أجاب إدمون: «رجاءً، صاحبةَ الجلالة. لا أعرف ما تقصدين. أنا تلميذ مدرسة. على الأقلّ، كنتُ هكذا. فنحن الآن في أيّام العطلة».

الفصل الرابع

راحة الحلقوم

قالت الملكة لإدمون: «ولكنْ ما أنت؟ أأنت قزم كبير طويل القامة حلق لحيته؟»

فأجاب إدمون: «لا، يا صاحبة الجلالة. لم تكُن لي لحيةُ قطّ. فأنا صبيّ صغير!»

قالت: «صبيّ؟ أتعني أنّك واحد من بني آدم؟»

فظلّ إدمون ساكتاً، ولم يقُل كلمة واحدة. وقد منعه ارتباكه الشديد الآن أن يفهم معنى السؤال.

ثمّ قالت الملكة: «أرى أنّك أبله! فأيّ شيء آخر يمكن أن تكون؟ جاوبني حالاً، وإلاّ نَفِدَ صبري: أأنت إنسان؟»

فقال إدمون: «نعم، يا صاحبة الجلالة».

«قُل لي: كيف قدرتَ أن تدخل أراضيّ؟»

«عفوَك يا صاحبة الجلالة! لقد دخلتُ عبر خزانة ثياب».

«خزانة ثياب؟ ماذا تعني؟»

قال إدمون: «أنا، أنا فتحتُ باباً، فإذا بي هنا، يا صاحبة الجلالة».

فقالت الملكة، وهي تتحدّث إلى نفسها أكثر ممّا إلى

إدمون: «ها! باب! باب من عالم البشر! لقد سمعتُ بمثل هذه الأشياء. ربّما يُفسِد هذا كلّ شيء. ولكنّه واحدٌ فقط، ومن السهل أن أتعامل معه». وإذ قالت هذا الكلام، قامت عن مقعدها، وأخذت تحدّق إلى إدمون وعيناها تقدحان شرراً. وفي الوقت ذاته رفعت عصاها. فتأكّد لإدمون أنّها ستفعل أمراً رهيباً، لكنّه لم يقدر أن يتحرّك. ثمّ ما إن استسلم لليأس، حتى بدا أنّها غيّرت فكرها. فقد قالت بلهجة مختلفة تماماً:

«يا ولدي المسكين، كم يبدو عليك البرد! تعالَ اقعُد معي هنا على المزلجة، فأُغطّيك بعباءتي ونتحادث».

لم يُعجِب هذا التدبير إدمون قطّ، ولكنّه لم يستجرىء ألّا يُطيع. فصعد إلى المزلجة وقعد عند قدمَيها، فلفّته بطيّة من طيّات عباءتها المصنوعة من الفرو وثبّتتها حوله جيّداً.

وقالت الملكة: «ما قولك في شيء ساخن تشربه؟ ألا تحبّ هذا؟»

فقال إدمون وأسنانه تصطكّ: «بلى، رجاءً، صاحبةَ الجلالة!» وتناولت الملكة من مكانٍ ما بين حِزَمها قِنّينة صغيرة جدّاً بدت كأنّها من نحاس. ثمّ مدّت ذراعها وأسقطت منها نُقطة واحدة على الثلج إلى جانب المزلجة. ولمح إدمون النقطة هُنيهةً في الهواء وهي تتألّق كماسة. لكنّها ما إن لامست الثلج حتّى صدر صوت هسهسة، وطلعت كأسٌ مُرصّعة بالجواهر ملأى بشرابٍ يتصاعد

منه البُخار. وفي الحال حمل القزم هذه الكأس وقدّمها إلى إدمون بانحناءة وابتسامة ... ابتسامة غير لطيفة كثيراً. وشعر إدمون بكثير من التحسّن لمّا بدأ يرتشف الشراب الساخن، وكان شيئاً لم يذُقه قطّ من قبل، كثير الحلاوة والرغوة والدسَم، بعث فيه الدفء نزولاً حتّى أسفل قدمَيه.



وحالاً قالت الملكة: «من الغباوة، يا ابن آدم، أن تشرب ولا تأكل. فماذا تحبّ أن تأكل أكثر الكلّ؟»

فأجاب إدمون: «راحة الحلقوم، رجاءً، صاحبةَ الجلالة!»

فقطَرت المرأة نُقطةً أُخرى من قِنّينتها على الثلج، وفي الحال طلعت علبة مدوَّرة، مربوطة بشريطٍ من الحرير. ولمّا فتح العلبة، تبيّن أنّ فيها بضعة كيلوغرامات من أفخر راحة الحلقوم. وقد كانت كلُّ قطعة منها حلوة وخفيفة حتّى قلبها، ولم يكُن إدمون قد ذاق قطُّ أيَّ شيء أطيب منها! وهكذا شعر بدفء كامل وراحة زائدة.

وبينما هو يأكل، ظلّت الملكة تطرح عليه أسئلتها. وفي الأول حاول إدمون أن يتذكّر أنّه قبيح أن يتكلّم الإنسان وفمه مملوء طعاماً، لكنّه سرعان ما نسي ذلك وأخذ يُفكّر فقط في التهام أكبر كميّة ممكنة من راحة الحلقوم. وكلّما أكل، رغب في المزيد، ولم يسأل نفسه قطُّ عن أسباب رغبة الملكة في معرفة الكثير عنه. فقد جعلته يخبرها أنّ له أخاً وأختين وأنّ إحدى أُختيه جاءت إلى نارنيا قبلاً وقابلت فوناً هناك، وأنْ لا أحد غيره وغير أخيه وأُختيه عرف أيَّ شيء عن نارنيا. وبدا أنّها اهتمّت خصوصاً بوجود أربعة منهم، كما ظلّت تعود إلى هذا الموضوع. فقد سألته: «أمتأكّد أنّكم أربعة فقط؟ اثنان من بني آدم واثنتان من بنات حوّاء، لا أكثر ولا أقلّ؟» وظلّ هو يقول، وفمه مملوء براحة الحلقوم: «نعم، قلتُ لك هذا من قبل»، ناسياً أن يُخاطِبها بلقب «صاحبة الجلالة». ولكن يبدو أنها لم تعُد مهتمة بذلك.

أخيراً نفدت راحة الحلقوم كلّها، فأخذ إدمون يُحدّق تحديقاً إلى العلبة الفارغة، متمنّياً لو أنها تسأله هل يريد

قليلاً بعد. وربّما عرفت الملكة تماماً ما كان يُفكّرُ فيه، لأنّها كانت تعرف، مع أنّ إدمون لا يعرف، أنّها كانت راحة حلقوم مسحورة، وأنّ كلّ من يذوقها مرّة لا بدّ أن يطلب مزيداً منها، بل إنّه أيضاً - لو سُمح له - يظلّ يأكل منها حتّى يقتل نفسه. ولكنّ الساحرة لم تعرض عليه المزيد، بل قالت له:

«يا ابن آدم، أُحبُّ كثيراً أن أُقابل أخاك وأُختيك. فهل تأتي بهم لمقابلتي؟»

فقال إدمون، وهو ما زال يُحدّق إلى العلبة الفارغة: «سأحاول».

وقالت هي: «لأنّي -إذا جئتَ إلى هنا مرّة أخرى وهُم معك طبعاً- أقدر أن أعطيك مزيداً من راحة الحلقوم. لا أقدر أن أفعل هذا الآن، فالسحر لا يشتغل إلّا مرّة واحدة. إمّا في بيتي الخاصّ، فالمسألة تكون مختلفة».

فسألها إدمون: «لماذا لا تقدرين أن تذهبي إلى بيتك الآن؟» مع أنه كان قد خاف لمّا صعد إلى المزلجة أوّلاً أن تبتعد به إلى مكانٍ مجهول لا يقدر أن يرجع منه. لكنّه الآن نسي ذلك الخوف.

وقالت الملكة: «إنّ بيتي مكان جميل جدّاً. وأنا متأكّدة أنّه سيعجبك. ففيه غُرَف بكاملها مملوءة براحة الحلقوم. ثُمّ إنّه لا أولاد لي. فأنا أُريد ولداً طيّباً يمكنني أن أُربّيه كأمير، ثمّ يصير ملكاً على نارنيا بعد رحيلي. وبينما هو أميرٌ بعد، يلبس تاج ذهب، ويأكل راحة الحلقوم طول النهار. وها

أنت أذكى صبيٍّ وأجمل شابٍّ رأيتُه حتّى الآن. فأعتقد أنّه سيطيب لي أن أجعلك الأمير ... ذاتَ يومٍ، عندما تصطحب الآخرين لزيارتي».

فقال إدمون: «ولماذا ليس الآن؟» وكان وجهه قد احمرَّ كثيراً وصارت أصابعه مُدبَّقة. فلم يظهر لا ذكياً ولا جميلاً، مهما قالت الملكة.

ثمَّ قالت الساحرة: «أوه، إذا أخذتُك إلى هناك الآن، فلَن أقابل أخاك أو أختيك. وأنا أُحبُّ كثيراً أن أرى إخوتك الطيّبين. أمّا أنت فستكون الأمير، ثمَّ الملكَ لاحقاً. هذا مفهوم. ولكنْ يجب أن يكون حولك مُرافِقون ونُبلاء. فسأجعل أخاك أميراً وأُختيك أميرتين».

فقال إدمون: «إنّهم لا يتميَّزون عن باقي الأولاد بشيء. وعلى كلِّ حال، يمكنني أن آتي بهم مرّةً أخرى في أيِّ وقت».

قالت الملكة: «آه، ما إن تصير في بيتي، حتى يمكن أن تنسى أمرهم كليّاً. فإنّك ستكون متمتّعاً كثيراً بحيث لا تعود ترغب في مشقّة الذهاب لإحضارهم. كلّا! عليك أن ترجع إلى بلدك، ثمَّ تعود إليَّ يوماً آخر، بصحبة إخوتك. مفهوم؟ فلا خير في مجيئك دون أن يكونوا معك».

فقال إدمون متوسّلاً: «ولكنّني لا أعرف حتّى طريق الرجوع إلى بلدي!»

قالت الملكة: «أمرٌ هيّنٌ! أترى ذلك المصباح؟» وأشارت بعصاها، فالتفت إدمون ورأى عمود الإنارة نفسه

الذي تحته قابلت لوسي الفون. وتابعت هي تقول: «وراء ذلك العمود مباشرةً تجد الطريق إلى عالم البشر. والآن تطلّع إلى الجهة المقابلة» - وهنا أشارت بالعصا إلى الاتّجاه الآخر - «وقُل لي: هل ترى تلّتين صغيرتين ترتفعان فوق الشجر؟»

فقال إدمون: «نعم، أراهما».

«حسناً، بيتي بين هاتين التلّتين. فحين تأتي في المرة القادمة، ما عليك إلّا أن تصل إلى عمود الإنارة وتُفتّش عن هاتين التلّتين، ثمّ تمشي وسط الغابة فتصل إلى بيتي. إنّما تذكّر: عليك أن تصطحب إخوتك. فإنّي قد أغضب عليك غضباً شديداً إذا جئتَ وحدك».

قال إدمون: «سأبذل كلَّ جهدي!»

فأضافت الملكة: «وعلى فكرة، لا ضرورة أن تخبرهم عنّي. فسيكون مُمتِعاً أن نُبقيَ ذلك سرًّا بيننا، أليس كذلك؟ فاجعلها مفاجأة لهم. ما عليك إلّا أن تأتي بهم إلى التلّتين، وولد ذكيٌّ مثلك لا بدَّ أن يفكّر بأيِّ حجّة لإحضارهم إلى التلّتين. وعندما تصلون إلى بيتي، يمكنك أن تقول: «هيّا بنا نرى مَن يسكن هنا»، أو أيَّ شيءٍ مثل هذا. أنا متأكّدة أنَّ هذا أحسن شيء. وإذا كانت أُختك قد قابلت واحداً من الفونات، فربّما تكون قد سمعت منه قصصاً غريبة عنّي، قصصاً كريهة تجعلها تخاف أن تأتي. فالفونات قد يقولون أيَّ شيء، كما تعرف، والآن...»

فقال إدمون فجأةً: «رجاءً، هل يمكن أن تعطيني قطعة واحدة من راحة الحلقوم حتّى آكلها وأنا راجع إلى دياري؟»

قالت الملكة ضاحكةً: «لا، لا! يجب أن تنتظر حتّى المرّة التالية». وبينما هي تتكلّم، أومأت إلى القزم أن يسوق. ولكنْ فيما كانت المزلجة تتوارى عن النظر، لوّحت الملكة بيدها لإدمون، مُنادية: «المرّة التالية... المرّة التالية! لا تنسَ. تعال قريباً!»

وكان إدمون ما زال يُحدّق إلى المزلجة حين سمع شخصاً يُناديه باسمه، فالتفت وإذا لوسي قادمة نحوه من مكانٍ آخر في الغابة.

نادت لوسي: «يا إدمون، ها قد جئتَ أنت أيضاً! أليس المكان رائعاً، والآن...»

فأجاب إدمون: «صحيح! تأكّدتُ أنّكِ كنتِ على حقّ. فالخزانة سحريّة تماماً. أنا أعتذر إليكِ إن قبلتِ اعتذاري. ولكنْ أينَ كنتِ طوال هذا الوقت؟ لقد فتّشتُ عنكِ في كلّ مكان».

كانت لوسي في مُنتهى السعادة والحماسة بحيث لم تلاحِظ كيف تحدّث إدمون بتأثّر وتوتّر، ولا كيف ظهرت على وجهه علامات الاستحياء والاستغراب. وقالت: «لو عرفتُ أنّك دخلتَ الخزانة لانتظرتُك. لقد كنت أتغدّى مع السيّد طمنوس الطيّب، أي الفون. إنّه بخير، والساحرة البيضاء لم تعمل به شيئاً لأنّه تركني أذهب. ولذلك

يعتقد أنّها لم تكتشف الأمر، وربّما كلّ شيء سيكون بخير رغم ما جرى».

فسأل إدمون: «الساحرة البيضاء؟ مَن هي؟»

قالت لوسي: «هي شخص حقير ورهيب جدًا. إنّها تُسمّي نفسها ملكة نارنيا، مع أنّه لا يحقّ لها أبداً أن تكون ملكة. ثمّ إنّ جميع الفونات، وآلهة الأشجار والأنهار، والأقزام والحيوانات - على الأقلّ جميع الطيّبين منهم - يكرهونها كلّ الكره. وهي تقدر أن تحوّل الناس إلى حجارة، وتفعل كلّ الأعمال المروّعة. وقد سحرت نارنيا حتّى يكون فيها شتاءٌ دائم: شتاءٌ كلّ حين، ولكنْ لا يصل أبداً إلى عيد الميلاد! وهي تجول راكبةً على مزلجة يجرّها غزالان، وعصاها بيدها، وعلى رأسها تاج».

وكان إدمون قد بدأ يشعر بالانزعاج لأكله كثيراً من قِطَع الراحة. فلمّا سمع أنّ السيّدة التي صادقها هي ساحرة خطرة، ازداد انزعاجاً. ولكنّه بقي راغباً في تذوّق راحة الحلقوم تلك مرّةً أخرى أكثر من رغبته في أيّ شيء آخر.

فسألها: «مَن قال لك عنها هذه الأشياء كلّها؟»

قالت لوسي: «السيد طمنوس، الفون الطيّب!»

فقال إدمون: «لا يمكنكِ أن تصدّقي دائماً ما يقوله الفونات»، محاولاً أن يظهر بمظهر مَن يعرف عنهم أكثر بكثير ممّا تعرفه لوسي.

وسألته لوسي: «مَن قال هذا؟»

فقال: «كلٌّ واحد يعرف هذا. اسألي أيَّ شخصٍ تريدين. ولكنَّ وقوفنا هنا في الثلج طريقة سيئة جدًّا لقضاء الوقت. فلنرجعْ إلى ديارنا».

قالت لوسي: «صحيح، لنرجعْ يا إدمون. أنا مسرورة لأنك جئت أنت أيضاً إلى هنا. سيكون على أخينا وأختنا أن يصدِّقا أمرَ وجود نارنيا بعدما ذهبنا كلانا إليها. وكم سنلهو ونمرح!»

ولكنَّ إدمون فكّر بسرِّه أنَّ نصيبها من اللهو والمرح لن يكون كنصيبه هو منهما. فسيكون مضطرّاً إلى الاعتراف بأنَّ لوسي كانت على حقّ، وذلك قُدَّام الآخرين جميعاً. وكان متأكِّداً أنَّ أخاه وأُخته كليهما سيقفان إلى جانب الفونات والحيوانات. لكنَّه كان قد انحاز، إلى حدٍّ بعيد، إلى جانب الساحرة. لم يكُن يعرف ما سيقول، ولا كيف سيتمكَّن من كتم سرِّه حالما يُباشرون جميعاً التحدُّث عن نارنيا.

كانا آنذاك قد مشيا مسافة طويلة. إلاّ أنّهما سرعان ما أحسّا حولهما المعاطف بدل الأغصان. وما هي إلاّ لحظة أخرى، حتّى صارا كلاهما واقفين في الغرفة الفارغة، خارج الخزانة!

وقالت لوسي: «عجباً، منظرُك رهيب يا إدمون! ألستَ بخير؟»

فقال إدمون: «أنا بخير». ولكنَّ ذلك لم يكن صحيحاً، إذ إنّه كان يشعر بأنّه مريض جدًّا.

وقالت لوسي: «هيّا بنا إذاً نفتِّش عن أخوَينا الباقيَين. فما أكثر الأشياء التي سنخبرهما بها! وما أكثر المغامرات التي سوف نقوم بها، ما دُمنا كلانا قد ذهبنا إلى هناك!»

العودة إلى هذه الجهة من الباب

لأنَّ لعبة الغميضة كانت ما تزال جارية، استغرق عثور إدمون ولوسي على الآخرين بعض الوقت. ولكن لمّا تلاقى الجميع أخيراً (وقد حصل ذلك في الغرفة المستطيلة، حيث كان طقم الدروع)، اندفعت لوسي قائلةً:

«بطرس! سوزان! الأمر كلُّه حقيقيّ. وإدمون أيضاً رأى ذلك. فهنالك فعلاً عالم يمكنكما أن تذهبا إليه عبر الخزانة. وأنا وإدمون كلانا ذهبنا إليه. وقد قابلنا أحدُنا الآخر هناك، في الغابة. هيّا يا إدمون، أخبرهما كلَّ شيء عن الأمر».

وقال بطرس: «ما الأمر؟ ماذا هنالك، يا إدي؟»

والآن نصل إلى واحد من أسوأ الأشياء في هذه القصّة. فحتّى تلك اللحظة، كان إدمون يتضايق وينزعج ويشعر بالخيبة من لوسي لأنّها تقول الحقّ. إلاّ أنّه لم يكن بعدُ قد قرّر ماذا يفعل. ولمّا سأله بطرس فجأةً هذا السؤال،

قرّر فوراً أن يفعل أحقر شيء وأكثر الأشياء إغاظةً بين كلّ ما استطاع أن يفكّر فيه. فقد نوى أن يخذل لوسي!

فقد قالت سوزان: «هات خبّرنا، يا إدمون».

ونظر إدمون نظرة استعلاء، كما لو كان أكبر من لوسي بكثير (مع أنّه لا يكبرها بأكثر من سنة)، ثمّ أطلق ضحكة خفيفة وقال: «أُوه، نعم! كنّا أنا ولوسي نمزح: تظاهرْنا بأنّ حكايتها عن وجود بلد داخل خزانة الثياب صحيحة كلُّها. وهذا طبعاً على سبيل المزاح. فليس هنالك شيء فعلاً».

فنظرت لوسي المسكينة إلى إدمون نظرةً واحدة، وخرجت من الغرفة بسرعة.

أمّا إدمون، وكان يصير أشرّ وأسوأ كلّ دقيقة، فقد تصوّر أنّه حقّق نجاحاً باهراً، وتابع في الحال قائلاً: «ها قد حردت مرّة أخرى! ما بها؟ ذلك أسوأ شيء في الأولاد الصغار، فهم دائماً ...»

فالتفت إليه بطرس عابساً وقال له بلهجة شديدة: «انتبه يا إدمون! كُفّ عن الكلام! لقد كنتَ خشناً جدّاً في معاملة لوسي منذ بدأت هذه التفاهات عن خزانة الثياب، والآن تلعب معها الألاعيب بخصوصها، فتغيظها وتحرجها من جديد. أعتقد أنّك لم تفعل هذا إلاّ بدافع الإغاظة».

فقال إدمون تحت وطأة المفاجأة: «ولكنّ هذا كلّه سخافات!»

فرد بطرس: «طبعاً هذا كله سخافات، وهذا ما أقصده. كانت لوسي بخير حين تركنا البيت، ولكن منذُ أتينا إلى هنا، يبدو أن لوثةً أصابت ذهنها أو أنها تحوّلت إلى كاذبةٍ مخيفةٍ جداً. ولكن مهما كان الأمر، فما الخير الذي تظن أنك ستحققُه من الاستهزاء والسخرية بها يوماً، وتشجيعها في اليوم التالي؟»

فقال إدمون: «فكرتُ، فكرتُ»، ولكنه لم يستطع التفكير بأي شيء يقولُه.

وقال بطرس: «أنت لم تفكّر بشيءٍ قطّ. ما هذا إلاّ مزاح ثقيل وإغاظة! فطالما أحببتَ أن تتصرّف بوحشيّة مع أيّ شخصٍ أصغر منك. وقد رأينا هذا منك في المدرسة قبلاً».

فقالت سوزان: «كفى! لا خير في الشجار. لنذهب ونجد لوسي!»

ولم يكن مُفاجئاً أنّهم لمّا وجدوا لوسي، بعد وقت غير قصير، عرفوا كلُّهم أنّها كانت تبكي. ولا شيء ممّا قالوه لها غيّر الحال، بل ظلّت على موقفها وقالت:

«لا يهمّني ماذا تفكّرون، ولا يهمُّني ما تقولون. يمكنكم أن تُخبرّوا الأستاذ، أو يمكنكم أن تكتبوا إلى الماما، أو أن تفعلوا ما يحلو لكم. فأنا أعرف تماماً أنّني قابلتُ فوناً هناك ... وأتمنّى لو بقيتُ هناك، فأنتم كُلّكم أردياء وأدنياء!»

كانت أُمسية غير مُسرة. فلوسي كانت في حالةٍ يُرثى

لها، وإدمون بدأ يشعر أنّ خُطّته لم تكُن تجري حسناً كما تصوّر. أمّا الأخوان الأكبران، فكانا بالحقيقة قد بدأا يعتقدان أنّ لوسي فقدت عقلها. وبعدما ذهبت هي لتنام، وقفا معاً في الممرّ يتحدّثان همساً عن الأمر وقتاً طويلاً.

فكانتِ النتيجة أنّهما قرّرا أن يذهبا صباحَ الغد ويحكيا للأستاذ القصّة كلّها. وقال بطرس: «وهو سيكتب رسالة إلى البابا، إذا اعتقد أنّ لوسي ليست بخير. فالأمر يتجاوز قدرتنا».

وهكذا ذهبا وقرعا باب مكتب الأُستاذ، فقال: «تفضّل ادخُل». فدخلا، فقام وأحضر لهما كرسيّين، وقال لهما إنّه تحت تصرُّفهما تماماً. ثمّ قعد يستمع إليهما، واضعاً رؤوس أصابع يديه بعضها على بعض، وما قاطعهما قطّ حتّى فرغا من القصّة كلّها. وبعدئذٍ لم يقُل كلمة واحدة وقتاً غير قصير. ثُمّ تنحنح وقال لهما آخِر شيء توقّعه كِلاهما، إذ سألهما:



«وما يدريكما أنَّ حكاية أُختكما غير صحيحة؟»

فبدأت سوزان تقول: «أُوه، ولكن ...» ثمَّ توقَّفت. فأيُّ شخص كان يمكنه أن يرى من وجه ذلك العجوز أنَّه جادٌّ للغاية. ثمَّ استجمعت سوزان أفكارها وقالت: «ولكنَّ إدمون قال إنَّهما كانا يمزحان فقط».

فقال الأُستاذ: «هذه نقطة تستحقُّ التفكير، التفكير الدقيق جدّاً. مثلاً، واعذُراني لهذا السؤال، هل يدفعكما اختباركما لتعتبرا أخاكما أو أُختكما الأصدق؟ أعني: أيُّهما يقول الحقَّ أكثر؟»

قال بطرس: «هذا هو الأمر المُضحِك في المسألة، يا أُستاذ. فحتَّى الآن، ما كُنتُ إلاَّ لأقول 'لوسي' كلَّ مرَّة».

فالتفت الأُستاذ إلى سوزان وقال: «وما قولك أنتِ، يا بُنيَّتي؟»

قالت سوزان: «حسناً، بصورة عامَّة أقول ما قاله بطرس. ولكن لا يمكن أن تكون الحكاية كلُّها صحيحة، أعني حكاية الغابة والفون ...»

فقال الأُستاذ: «هذا يفوق حدود معرفتي. إنَّما تهمة الكذب لفتاةٍ طالما كانت صادقةً في نظركما هي تهمة خطيرة جدًّا. نعم، إنَّها مسألة خطيرة فعلاً».

قالت سوزان: «خفنا ألاَّ يكون الكذب هو المسألة، فقد حسبنا أنَّ سوءاً ما ربَّما يكون قد أصاب عقل لوسي!»

فقال الأُستاذ بمُنتهى البرودة: «أتقصدان أنَّها رُبَّما جُنَّت؟ إنكما تقدران أن تُريحا فكركما من جهة ذلك.

فما على المرء إلاَّ أن ينظر إليها ويحادثها ليتأكَّد أنَّها غير مجنونة».

قالت سوزان: «ولكنْ عندئذٍ ...» ثمَّ توقَّفت. فإنَّها ما حلمت يوماً أنَّ شخصاً كبيراً راشداً يتكلَّم مثلما تكلَّم الأُستاذ، ولم تعرف ماذا تفكِّر.

فقال الأُستاذ وكأنَّه يحدِّث نفسه: «المنطق! لماذا لا يُعلِّمون المنطق في مدارس هذه الأيَّام؟ فلا يوجد إلاَّ ثلاثة احتمالات: إمَّا أنَّ أُختكما تكذب، وإمَّا هي مجنونة، وإمَّا صادقة. وأنتما تعرفان أنَّها لا تكذب. وواضح أنَّها غير مجنونة. فعلينا أن نفترض إذاً أنَّها تقول الحقَّ، في الوقت الحاضر، إلاَّ إذا ظهر أيُّ دليلٍ آخر!»

وتطلَّعت سوزان إليه طويلاً، فتأكَّدت تماماً من تعابير وجهه أنَّه لم يكن يستهزىء بهما.

وقال بطرس: «ولكنْ كيف يمكن أن يكون الأمر صحيحاً، يا أُستاذ؟»

فسأله الأُستاذ: «لماذا تقول هذا؟»

أجاب بطرس: «حسناً، لسبب واحد: إذا كان الأمر صحيحاً، فلماذا لا يجد الجميع ذلك العالم كُلَّما دخلوا خزانة الثياب؟ أعني أنَّنا لم نجد شيئاً هناك لمَّا تطلَّعنا. حتَّى لوسي نفسُها لم تتظاهر بوجود شيء!»

فسأل الأُستاذ: «وأيُّ دَخل لهذا بالأمر؟»

«حسناً يا أُستاذ، إذا كانت الأشياء حقيقيَّة، تكون في مكانها دائماً».

قال الأُستاذ: «حقاً؟» ولم يعرف بطرس تماماً ماذا يقول.

وقالت سوزان: «ولكنْ لم يكن هناك وقتٌ كافٍ. لم يتّسع الوقت لتذهب لوسي إلى أيّ مكان، حتّى لو كان مكانٌ كهذا موجوداً! فهي جاءت راكضةً وراءنا لحظةَ خروجنا من الغرفة. لم يمرّ أكثر من دقيقة واحدة، وهي تظاهرت بأنّها غابت هناك ساعات!»

فقال الأُستاذ: «هذا هو بالذات الشيءُ الذي يجعل حكايتها صادقة جدّاً على الأرجح. فإذا كان في هذا البيت حقاً بابٌ يؤدّي إلى عالم آخر (وعليَّ أن أُنبّهكم إلى أنّ هذا البيت غريب جدًا، حتّى إنّني أنا لا أعرف عنه إلاّ القليل)، أقول إنّها إذا كانت قد ذهبت إلى عالم آخر، فلن يُفاجئني أبداً أن يكون لذلك العالم وقتُه الخاصّ. وعليه، فمهما طالت إقامتك هناك، فلا يأخذ ذلك أيَّ شيءٍ أبداً من وقتنا هنا. ثمّ إنّني لا أعتقد أنّ بناتٍ كثيرات في عمرها يخترعن هذه الفكرة من تلقاء أنفسهنّ. فلو كانت تتظاهر، لاختبأت وقتاً معقولاً قبل أن تظهر وتحكي حكايتها!»

وقال بطرس: «ولكنْ أتعني حقًا، يا أُستاذ، أنّه يمكن أن يكون هناك عوالم أُخرى مثل ذلك، في كلّ مكانٍ من تلك الأراضي، وراء الزاوية مباشرةً؟»

فقال الأُستاذ: «هذا شيء محتمل جدًّا جدًّا»، ثمّ نزع نظّارته وبدأ يمسحها مُتمتِماً: «تُرى، ماذا يُعلّمونهم في مدارس هذه الأيّام؟»

وقالت سوزان: «ولكنْ ماذا نفعل؟» بعدما أحسّت أن الحديث أخذ يخرج عن موضوعه.

فنظر الأُستاذ إلى كليهما فجأةً نظرةً حادّة جدّاً، وقال: «أيّتها الصبيّة العزيزة، هنالك خُطّة واحدة تستحقّ التجريب جيّداً، ولم يقترحْها أحد بعد».

قالت سوزان: «وما هي؟»

فقال: «هلاّ يحاول كلٌّ منّا أن ينصرف إلى شؤونه الخاصّة!» وبهذا انتهت المحادثة.

بعد ذلك تحسّنت الأحوال بمقدار جيّد نسبةً إلى لوسي. فقد اهتمّ بطرس بتوقيف إدمون عن الاستهزاء بها، ولم يشعر أحد - لا هي ولا غيرها - بأيّ ميلٍ إلى التحدّث عن الخزانة، بل صار ذلك بالأحرى موضوعاً خطراً. حتّى ظهر حيناً كأنّ جميع المغامرات ستتوقّف. إلاّ أنّ ذلك لم يكُن ليحصل.

فإنّ بيت الأُستاذ، هذا الذي حتّى هو عرف عنه القليل القليل، كان قديماً وشهيراً جدّاً بحيث قصد إليه الناس من جميع أنحاء بريطانيا واستأذنوا أن يتفرّجوا عليه. فقد كان بيتاً مثل تلك البيوت المذكورة في دليل السائح، بل في كتب التاريخ أيضاً، ويمكن تماماً أن يُعتبر واحداً منها، لأنّ قصصاً شتّى كانت تُحكى عنه، بعضُها أغرب أيضاً من هذه التي أحكيها لك الآن. وكلّما جاءت مجموعات السيّاح وطلبوا إذناً بمشاهدة البيت، كان الأُستاذ يأذن لهم دائماً، كما كانت السيدة مكريدي، مدبّرة المنزل، تجول

بهم في أنحاء البيت، مُحدِّثةً إيّاهم عن الصُوَر والدروع والكتب النادرة في المكتبة. ولم تكن السيدة مكريدي تحبُّ الصغار، ولا كانت تحبُّ أن يُقاطعها أحدهم وهي تخبر الزوّار بكلّ ما تعرفه. فتقريباً في أوّل صباح في ذلك البيت، أعطت تعليماتٍ كثيرة إلى الأولاد، وقالت لسوزان وبطرس خصوصاً: «رجاءً، تذكّرا أن تبتعدا من الدَّرب كُلّما اصطحبتُ مجموعة سُيّاح إلى أنحاء البيت!» آنذاك قال لها إدمون:

«ومَن منّا يرغب أن يُضيّع نصف فترة الصباح وهو يتسكّع مع مجموعة من الكبار الغرباء؟» فيما فكّر الثلاثة الباقون الفكرة نفسها. هكذا بدأت المغامرات ثالث مرة.

وبعد بضعة أيّام، كان بطرس وإدمون في الصباح يتأمّلان طقم الدروع ويتساءلان هل يقدران أن يُفكّكاه قطعة قطعة، حينَ اندفعت البنتان إلى داخل الغرفة قائلتين: «انتبها! ها هي مكريدي آتية ومعها جماعة كبيرة».

فقال بطرس: «لننصرِف بسرعة!» وخرج الأربعة حالاً من الباب الواقع في طرف الغرفة البعيدة. ولكنْ لمّا دخلوا الغرفة الخضراء ثمّ تجاوزوها إلى المكتبة، سمعوا فجأةً أصواتاً قُدّامهم، وأدركوا أنّ السيدة مكريدي لا بدَّ أن تكون مصطحبةً جماعة المتفرّجين على الدرج الخلفيّ، لا على الدرج الأمامي كما كانوا قد توقّعوا. وبعد ذلك - أكان لأنّهم فقدوا صوابهم، أم لأنّ مكريدي كانت تحاول القبض عليهم، أو لأنّ سحراً ما في ذلك البيت قد انبعث حيّاً وراح يطاردهم حتّى يدخلوا نارنيا - بدا أنّهم وجدوا أنفسهم مُلاحَقين في كلّ مكان، حتّى قالت سوزان أخيراً: «أوه، أفٍّ من هؤلاء الزوّار! هيا بنا ندخل غرفة خزانة الثياب حتّى يكونوا قد مرّوا. فلا أحد سيلحق بنا إلى هناك». ولكنّهم ما إن وصلوا إلى داخل الغرفة حتّى سمعوا أصواتاً في الممرّ، ثمّ أحسّوا أحداً يتلمّس الباب، وبعدئذٍ رأوا مسكة الباب تدور.

فقال بطرس: «هيّا، بسرعة! لا مكان آخر». ثمّ فتح باب الخزانة على وسعه، فدخل الأربعة وتكوّموا هناك حيث قعدوا يلهثون وسط الظلام. وأمسك بطرس الباب

المغلق بيده، لكنّه لم يُقفله، لأنّه تذكّر طبعاً - كما من شأن كلّ عاقلٍ أن يتذكّر - أنّ عليك إلّا تُقفِل على نفسك أبداً باب خزانة ثياب.

الفصل السادس

في قلب الغابة

قالت سوزان تواً: «أتمنّى لو تُعجّل مكريدي وتُبعِد جميع هؤلاء الناس من هنا. فأنا أنعصر وأتشنّج بشكل رهيب».

فقال إدمون: «وما أكره رائحة النفتالين أيضاً!»

قالت سوزان: «أعتقد أنّ جيوب هذه المعاطف كُلّها مملوءة بها لإبعاد العُثّ».

وقال بطرس: «هناك شيء ينخزني في ظهري!»

فقالت سوزان: «أوليس الطقس بارداً؟»

قال بطرس: «بلى، إنّه بارد كما قُلتِ. وفوق ذلك، فالرطوبة كثيرة أيضاً. ماذا حلّ بهذا المكان؟ إنّني قاعد على شيء رطب، والرطوبة تزداد كلّ لحظة!» ثمّ جاهد حتّى يقف على رجليه.

وردّ إدمون: «لنخرج، فقد ذهبوا!»

فقالت سوزان فجأة: «أووه!» وسألوها كلّهم عمّا بها، فأجابت:

«أنا قاعدة وظهري إلى جذع شجرة. وانظروا! إنّ الضوء يطلع هناك، في ذلك المكان!»

قال بطرس: «عجباً! أنتِ على حقّ». ثمّ تطلّعوا هناك وهنالك: فالأشجار حوالينا من كلّ جهة. وهذه المادّة الرطبة ثلج. «أعتقد أنّنا دخلنا غابة لوسي أخيراً».

عندئذٍ زال كلّ شك، إذ وقف الأولاد الأربعة كلُّهم يطرفون بأعيُنهم في ضوء نهارٍ شتويّ، ووراءهم معاطف معلّقة على علّاقات، وأمامهم أشجار غطّاها الثلج.

فالتفت بطرس إلى لوسي حالاً، وقال:

«أعتذر عن عدم تصديقي لك. أنا آسف! هلّا نتصافح؟»

قالت لوسي: «طبعاً!» ومدّت يدها، فتصافحا.

وقالت سوزان: «والآن، ماذا نفعل تالياً؟»

قال بطرس: «ماذا نفعل؟ لنذهبْ ونستكشفِ الغابة طبعاً!»

وقالت سوزان، وهي تضرب الأرض بقدميها: «يُوه! البردُ شديد. لماذا لا نلبس بعض هذه المعاطف؟»

فقال بطرس بارتياب: «إنّها ليست لنا!»

وقالت سوزان: «أنا متأكّدة أنّه لا يوجد مَن يمانع عملنا هذا. فنحن لن نُخرجها من البيت، بل إنّنا لن نخرجها من الخزانة أيضاً».

فقال بطرس: «لم أفكّر في هذا قطّ، يا سُو. وما دُمتِ قد قُلتِ هذا، فلا مانع عندي طبعاً. فلا أحد سيقول إنّكِ سرقتِ معطفاً إن أرجعتِه إلى الخزانة حيث كان. وأنا أظنّ أنّ هذه البلاد كلّها هي داخل الخزانة!»

وفي الحال نفّذوا خطّة سوزان الحكيمة. وكانت المعاطف كبيرة عليهم حتّى وصلت إلى كواحلهم، فبدت أشبه بأرواب ملوكيّة منها بمعاطف، لمّا لبسوها. لكنّهم كلُّهم أحسّوا مزيداً من الدفء، وفكّر كلُّ واحدٍ منهم أنّ الآخرين يظهرون بمظهر أفضل وأنسب لطبيعة تلك البلاد بلبسهم هذا الزيّ الجديد.

وقالت لوسي: «يمكننا أن نتظاهر بأنّنا مُستكشِفون للقطب الشماليّ!»

فقال بطرس وقد بدأ يشقّ الطريق أمامهم إلى قلب الغابة: «ستُلاقي كثيراً من التشويق، بغير تظاهُر!» وكانت فوق رؤوسهم غيوم كثيفة داكنة، فبدا أنّه قد يتساقط مزيد من الثلج قبل حلول الليل. ثمّ بادر إدمون قائلاً: «ألا يجب علينا أن ننعطف قليلاً نحو اليسار إن كنّا متوجّهين صوب عمود الإنارة؟» وقد نسي حينئذٍ أنّ عليه أن يتظاهر بأنّه لم يزر الغابة قطُّ من قبل. فحالما خرجت تلك الكلمات من بين شفتيه، أدرك أنّه كشف نفسه. فتوقّف الجميع، وحدّقوا كلُّهم إليه. وصفّر بطرس مدهوشاً، ثمّ قال:

«إذاً جئتَ إلى هُنا من قبل. ولمّا قالت لُو إنّها قابلتك هُنا، كذّبتها!»

فساد صمتٌ رهيب. ثمّ قال بطرس: «طيّب، من بين جميع الوحوش الصغيرة السامّة ...» ولم يزد كلمةً أخرى، بل هزّ كتفيه فقط. فقد بدا بالحقيقة أنه لا يستطيع إضافة شيء، وتابع الجميع سيرهم في الحال.

إلّا أنّ إدمون كان يقول لنفسه: «سأُجازيكم جميعاً على هذا، يا عصابةً من المتكبّرين المتعجرفين الأنانيينَ!»

وقالت سوزان، قاصدةً في الأساس تغيير الموضوع: «إلى أين نحن ذاهبون على كلّ حال؟»

فقال بطرس: «أعتقد أنّ لُو يجب أن تكون مُرشِدتنا. ففي الحقيقة هي تستحقّ هذا. إلى أين تأخذيننا، يا لو؟»

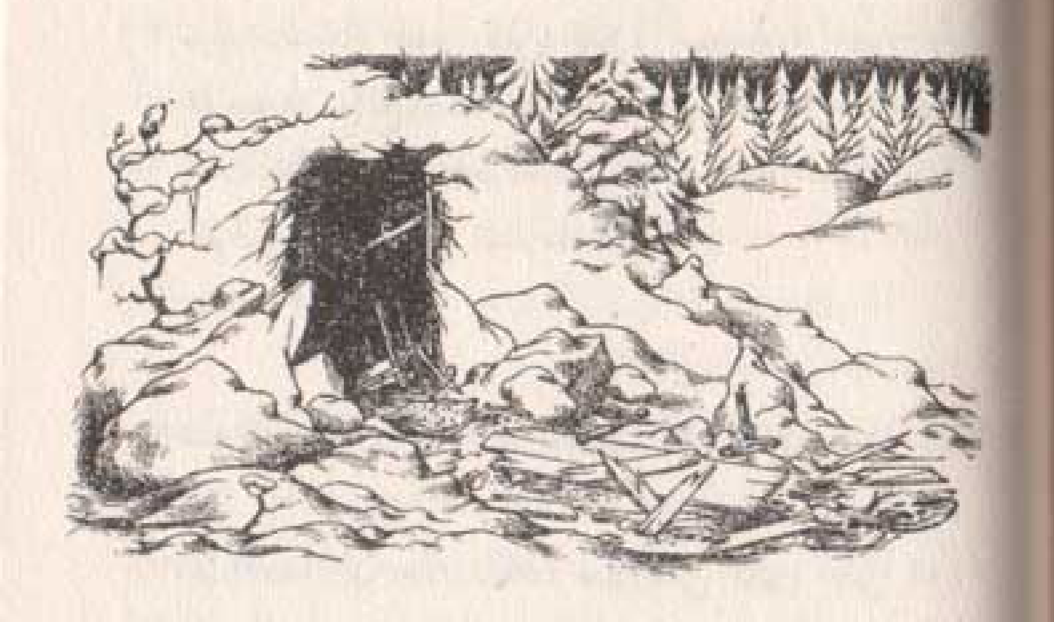
قالت لوسي: «ما رأيكم في الذهاب لزيارة السيّد طمنوس؟ إنّه الفون الطيّب الذي حدّثتكم عنه».

فوافق الجميع، وانطلقوا يمشون بنشاط، خابطين الأرض بأقدامهم. وتبيّنَ أنّ لوسي مُرشِدة ماهرة. ففي الأوّل تساءلت هل تقدر أن تعرف الطريق، لكنّها ميّزت شجرة غريبة في أحد الأماكن، وأصلَ شجرة مقطوعة في مكان آخر، فأخذتهم إلى حيث صارت الأرض غير مستوية، ثمّ إلى الوادي الصغير، وأخيراً إلى باب مغارة السيّد طمنوس بالذات. ولكنّ مفاجأة مُروِّعة كانت بانتظارهم هناك.

كان الباب مخلوعاً من مُفصّلاته ومُكسّراً. وفي الداخل، كانت المغارة مظلمة وباردة، تنتشر فيها رائحة رطوبة وبرودة كريهة كرائحة مكانٍ لم يعش فيه أحد منذ عدّة أيّام. وكان الثلج قد انجرف من المدخل وتكوّم على أرضيّة المغارة، يُخالطه شيء أسود تبيّنَ أنّه رماد وبقايا عصيّ محروقة من الموقد. وقد ظهر أنّ أحدهم ذرّاه في

أنحاء المغارة ثمّ داسه بقدميه. وكانت أواني الفخّار مُشقّقة مكسّرة على الأرض، وصورة والد الفون مُمزّقة بسكّين قطعاً طويلة.

قال إدمون: «يا له من فشل ذريع! أيُّ خير في مجيئنا إلى هنا؟»



ثمّ قال بطرس وهو ينحني إلى الأرض: «ما هذا؟» إذ لاحظ توّاً ورقة مُسمّرة بالأرض فوق السجّادة.

فسألت سوزان: «أمكتوبٌ عليها شيء؟»

فأجاب بطرس: «نعم، أظنُّ هذا. ولكنْ لا أقدر أن أقرأ الكلام في العتمة. فلنخرج إلى الهواء الطَّلق».

وخرج الجميع إلى ضوء النهار، وتجمّعوا حول بطرس فيما راح يقرأ الكلمات التالية:

الساكن السابق لهذا المكان، الفون طمنوس، هو قيد الاعتقال انتظاراً لمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى بحقّ صاحبة الجلالة الإمبراطوريّة جاديس، ملكة نارنيا، سيّدة قصر كيرپراڤيل، إمبراطورة الجزر الوحيدة... إلخ، وكذلك أيضاً بتهمة إضافة أعداء جلالتها وإيواء الجواسيس ومؤاخاة البشر.
التوقيع: غدّار، قائد الشرطة السريّة
عاشت الملكة!

عندئذٍ حدّق الأولاد بعضهم إلى بعض، وقالت سوزان:

«لا أعتقد أنّ هذا المكان سيروقني كثيراً على كلّ حال!»

وسأل بطرس: «مَن هذه الملكة، يا لُو؟ أتعرفين شيئاً عنها؟»

فقالت لوسي: «ليست ملكة حقيقية أبداً. هي ساحرة رهيبة، الساحرة البيضاء. والجميع، أهل الغابة كلُّهم، يكرهونها. وقد سحرت هذا البلد كلّه حتّى عمّ الشتاء الدائم هُنا بغير أن يأتي عيد الميلاد أبداً!»

وقالت سوزان: «تُرى، هل من فائدةٍ في البقاء هُنا؟

أقصد أنّ هذا المكان لا يبدو آمناً بصفة خاصّة، ويبدو كأنّنا لَن نُلاقي كثيراً من المرح أيضاً. ثمّ إنّ البرد يزداد كلّ دقيقة، ونحن لم نجلب معنا أيّ طعام. ما رأيكم في العودة إلى البيت حالاً؟»

فقالت لوسي فجأةً: «ولكنّ هذا غير ممكن! ألا ترَون؟ نحن لا نقدر أن نرجع إلى ديارنا، خصوصاً بعد هذا الذي شاهدناه! فبسببي أنا وقع ذلك الفون المسكين في هذه الورطة. إنّه خبّأني من الساحرة، ودلّني على طريق العودة. وهذا هو المقصود بإضافة أعداء الملكة ومؤاخاة البشر. فما علينا إلاّ أن نحاول تخليصه!»

قال إدمون: «هه! ما أكثر ما يمكننا أن نعمله وليس عندنا حتّى طعام نأكله!»

فقال بطرس، وكان ما يزال غاضباً على إدمون غضباً شديداً: «أُسكُت أنت! ما قولكِ، يا سوزان؟»

قالت سوزان: «عندي شعور رهيب بأنّ لُو على حقّ. لا أُريد أن نتقدّم خطوة واحدة بعد، ويا ليتنا ما جئنا. ولكنّني أعتقد أنّه يجب علينا أن نفعل شيئاً ما لأجل السيّد فُلان، أعني الفُون الطيّب».

فقال بطرس: «هذا أيضاً شعوري أنا. يُقلِقني ألاّ يكون عندنا طعام. وكنتُ أتمنّى لو نرجع ونُحضِر شيئاً من مخزن اللحم المجفّف في البيت. إنّما لا يبدو أنّ رجوعنا إلى هذا البلد مؤكد تماماً، إذا خرجنا منه. فأعتقد أنّ علينا متابعة مشوارنا».

قالت البنتان كلتاهما: «وأنا معك!»

وقال بطرس: «يا ليتنا نعرف المكان الذي حُبِس فيه هذا المسكين!»

وبينما كانوا كلُّهم ما يزالون يتساءلون عمَّا يفعلون تالياً، إذ قالت لوسي: «انظروا! هوذا أبو حنّ، صدره أحمر كثيراً. وهذا أوّل أبي حنّ أراه هنا. أعتقد ... أتساءل هل تقدر الطيور في نارنيا أن تتكلَّم؟ يكاد يبدو أنَّ هذا الطير أراد أن يقول لنا شيئاً». ثمَّ التفتت إلى أبي الحِنّ وقالت: «رجاءً، أيمكنك أن تقول لنا إلى أين أخذوا طمنوس الفون؟» وإذ قالت هذا تقدَّمت خطوةً نحو العصفور. وفي الحال طار مبتعداً، إنَّما إلى الشجرة التالية فقط، حيث حطَّ وأخذ يُحدِّق إليهم وكأنَّه قد فهم كلَّ ما كانوا يقولون. وبغير أن يلاحظوا ذلك تقريباً، اقتربوا إليه كلُّهم خطوةً أو خطوتين. عندئذٍ طار أبو الحِنّ مبتعداً من جديد إلى الشجرة التالية، ومرةً أخرى حدَّق إليهم تحديقاً. (لم يكن ممكناً أن تجد عصفور أبي حنّ صدرُه أكثر احمراراً أو عيناه أشدُّ بريقاً.)

فقالت لوسي: «هل تعرفون؟ أعتقد فعلاً أنَّه يريد منّا أن نتبعه».

قالت سوزان: «أظن أنَّ هذا صحيح. ما قولك يا بُطرس؟»

فأجاب بطرس: «حسناً، لماذا لا نُجرِّب؟»

وبدا أبو الحنّ فاهماً للقضيَّة تماماً. فقد ظلَّ يتنقَّل من شجرة إلى شجرة، بضعةَ أمتارٍ قدَّامهم دائماً، ولكنْ قريباً منهم جدًّا بحيث يسهل أن يتبعوه. وبهذه الطريقة أرشدهم نزولاً عن التلَّة ببطء. وحيثما حطَّ أبو الحنّ، كان رذاذ بسيط من الثلج يتساقط عن الغصن. وحالاً انقشعت الغيوم فوق رؤوسهم، وبرزت شمس الشتاء، فصار الثلج حواليهم يتألَّق ببياضه الباهر. وبعدما ساروا في ذلك الاتّجاه نحو نصف ساعة، والبنتان في المقدِّمة، قال إدمون لبطرس: «إذا كنتَ لم تعُد كثير الكبرياء والعجرفة حتّى تتكلَّم إليَّ، فعندي شيءٌ أقوله أفضلُ لك أن تستمع إليه».

فسأله بطرس: «وما هو؟»

فقال إدمون: «هُسّ! بصوتٍ غير عالٍ. فلا خير في إخافة البنتين. إنَّما هل تدرك ما نحن فاعلون؟»

ردَّ بطرس سائلاً: «ماذا؟» وقد خفَّض صوته إلى حدّ الهمس.

«نحن نتبع مُرشِداً لا نعرف عنه شيئاً. ما يُدرينا مع مَن هذا العصفور؟ ولماذا لا يكون آخِذاً إيّانا إلى فخّ؟»

«هذه فكرة سخيفة. ثُمَّ إنَّه أبو حنّ، كما تعرف! فهذه طيور طيِّبة في جميع القصص التي قرأتُها. أنا متأكِّد أنَّ أبا

الحنّ لن يكون في صف أعدائنا!»

«إن كان هكذا، فَمن معنا ومَن ضدّنا؟ ما يُدرينا أنّ الفونات في صفّنا، وأنّ الملكة (نعم، أنا أعرف أنّه قيل لنا إنّها ساحرة) عدوٌّ لنا؟ إنّنا بالحقيقة لا نعرف شيئاً عن كِلا الطرفين!»

«لقد خلّص الفون لوسي».

«هو قال إنّه خلّصها. ولكنْ كيف نعرف الحقيقة؟ ثُمّ هناك شيء آخر أيضاً: أعند أحدٍ منّا أيُّ فكرة عن طريق الرجوع إلى البيت من هُنا؟»

فقال بطرس: «يُوه! لمْ أفكّر في هذا».

وأضاف إدمون: «ولا مجال أيضاً لتناول أيّ عشاء!»

الفصل السابع

يومٌ عند السمّورَين

بينما كان الصبيّان يصفران في المؤخّرة، صرخت البنتان كلتاهما فجأةً: «أُوه!» وتوقّفتا.

ثمّ صرخت لوسي: «أبو الحنّ! لقد طار أبو الحنّ بعيداً». فإنّه فعلاً طار وما عاد الأولاد يرونه.

وقال إدمون: «والآن ماذا نفعل؟» ناظراً إلى بطرس نظرةً معناها: «ألَمْ أقُل لك؟»

قالت سوزان: «هُسّ! انظروا!»

قال بطرس: «ماذا؟»

«هنالك شيء يتحرّك بين الأشجار هناك إلى جهة اليسار».

وتطلّع الجميع محدّقين بأقصى ما يمكنهم، ولم يشعر أيّ منهم براحةٍ كافية.

وقالت سوزان فوراً: «ها هو يتحرّك مرّة أخرى».

فقال بطرس: «أنا رأيتُه أوّل مرّة أيضاً. وهو ما زال هناك. لقد توارى خلف تلك الشجرة الكبيرة».

وسألت لوسي: «ما هو؟» محاوِلةً بكلّ جهدها ألّا تبدو متوتّرة.

فقال بطرس: «مهما كان، فهو يُراوِغنا. إنّه شيءٌ لا يُريد أن يراه أحد».

قالت سوزان: «لنرجعْ إلى البيت!» وعندئذٍ أدرك الجميع فجأةً حقيقة ما همس به إدمون في أُذن بطرس آخِرَ الفصل السابق، مع أنَّ أحداً منهم لم يقل ذلك بصوتٍ عالٍ. لقد كانوا ضائعين.

وسألت لوسي: «ما شكله؟»

فقالت سوزان: «إنّه ... إنّه حيوانٌ من نوعٍ ما». ثمَّ: «انظروا! انظروا! بسرعة! ها هو هناك».

ورأوه جميعاً هذه المرَّة، وجهاً ذا فروٍ وشوارب، يتطلَّع إليهم من وراء شجرة. إلّا أنّه هذه المرَّة لم يتراجع حالاً، بل وضع مخلبه على فمه كما يفعل البشر حين يضعون إصبعاً على الفم إشارةً إلى السكوت. ثمَّ اختفى من جديد. فوقف الأولاد كلُّهم حابسين أنفاسهم.



وبعد لحظة برز الغريب خلف الشجرة، وتطلَّع حواليه كمن يخشى أن يكون هنالك مَن يراقبُه، وقال: «سكوتاً!» ثمَّ أومأ إليهم ليلحقوا به إلى القسم الأكثر كثافةً في الغابة، حيث كان هو واقفاً، وبعدئذٍ اختفى مرَّة أُخرى.

قال بطرس: «أنا أعرف ما هو. إنّه سمُّور. فقد رأيتُ ذيله».

وقالت سوزان: «إنّه يريد منّا أن نذهب إليه، وهو يحذِّرنا من إصدار أيِّ ضجَّة».

فقال بطرس: «أعرف هذا. إنّما السؤال هو: أنذهب إليه أم لا؟ ما قولكِ، يا لُو؟»

قالت لوسي: «أعتقد أنّه سمُّور لطيف».

وقال إدمون: «نعم، ولكن كيف نعرف ذلك؟»

فردَّت سوزان: «لماذا لا نُغامِر؟ أرى أنْ لا خيرَ في بقائنا واقفين هنا، وأنا أشعر بحاجتي إلى تناول طعام العشاء!»

في تلك اللحظة أطلَّ السمُّور برأسه من وراء الشجرة، وأومأ لهم بحرارة. فقال بطرس:

«هيّا بنا، لنجرّبْ! ظلُّوا مُتلاصقين كلُّكم. يجب أن نكون قادرين على مواجهة سمُّور واحد إذا تبيّنَ أنّه عدوّ».

فاقترب الأولاد بعضهم من بعض، ومشوا حتّى وصلوا إلى الشجرة، ثمّ داروا إلى ورائها. وهناك وجدوا السمُّور طبعاً. إلّا أنّه تراجع بعد، قائلاً لهم بهمس أجشّ: «اقتربوا أكثر. هيّا اقتربوا بعد. إلى هُنا تماماً. فلسنا في أمان ونحن في الهواء الطلق!» وعندما وصل بهم إلى بقعة معتمة بين أربع شجرات متقاربة بحيث تلاقت أغصانها، وكان ممكناً أن يروا التربة السمراء وأوراق الصنوبر الإبريّة تحت أقدامهم لأنّ الثلج لا يمكن أن يسقط هناك، عندئذٍ فقط بدأ يتكلّم معهم، فقال:

«أأنتم من بني آدم وبنات حوّاء؟»

أجابه بطرس: «نعم، نحن منهم».

فقال السمُّور: «هُسَّ! لا ترفع صوتك هكذا، رجاءً. فنحن لسنا في أمانٍ حتى هنا».

قال بطرس: «لماذا؟ ممّن تخاف؟ لا أحد هنا غيرنا نحن!»

فقال السمُّور: «هُنا الأشجار. وهي تُصغي دائماً. أغلبُها معنا، ولكنّ هنالك أشجاراً يمكن أن تخوننا وتشي بنا إليها... وأنتم تعرفون مَن أقصد»، ثمّ حنى رأسه بضع مرّات.

قال إدمون: «إذا تكلّمنا عن الصديق والعدوّ، فما يُدرينا أنّك معنا؟»

وأضاف بطرس: «لا نقصد الإهانة، يا سيّد سمُّور. ولكنّنا غرباء كما ترى».

فقال السمُّور: «صحيح تماماً، صحيح تماماً. هذا دليلي!» وإذ قال هذا، ناولهم شيئاً صغيراً أبيض، فتطلّعوا كلّهم إليه مدهوشين، إلى أن قالت لوسي فجأة: «أوه، طبعاً! هذا منديلي: المنديل الذي أعطيتُه للسيّد طمنوس المسكين!»

ثمّ قال السمُّور: «صحيح! لقد أحسَّ المسكين نيّة القبض عليه قبل حدوثه فعلاً، وأعطاني هذا المنديل. وقال إنّه إذا حدث له شيء، يجب أن أُقابلكِ هُنا وأصطحبكِ إلى...» وهُنا خفت صوت السمُّور حتّى السكوت، وحنى رأسه انحناءة أو انحناءتين غامضتين جدًّا. ثمّ طلب من الأولاد أن يقفوا أقرب ما يمكنهم حواليه، حتّى بدأت شواربه بالفعل تُدغدغ وجوههم، وأضاف بهمس خافت:

«يقولون إنّ أصلان يتقدّم، ولعلّه وصل فعلاً!»

إذ ذاك حدث شيء غريب جدًّا. فلا أحد من الأولاد كان يعرف مَن هو أصلان، كما لا تعرف أنت تماماً، ولكنّ لحظةَ نطق السمُّور بهذه الكلمات، شعر كلٌّ منهم بتغيّر حاله تماماً. وربّما حدث لك أحياناً في حلم أن يقول أحد شيئاً لا تفهمه، ولكنّك تحسُّ في الحلم أنّ لذلك الشيء معنًى

هائلاً: إمّا معنى مُروّع يُحوّل الحلم كلّه كابوساً ثقيلاً، وإمّا معنىً حلواً جدًّا، أحلى من أن يُعبّر عنه الكلام، يجعل ذلك الحلم جميلاً جدًّا بحيث تظلّ تتذكّره طول عمرك، وتتمنّى لو تحلم ذلك الحلم مرّة أُخرى. هكذا كانت الحال الآن. فعند ذكر اسم أصلان، شعر كلّ من الأولاد بشيء يقفز داخل صدره. وقد أحسّ إدمون شعوراً بالرعب الغامض. وأحسّ بطرس فجأةً أنّه شجاع ومُغامِر. وأحسّت سوزان كأنّ رائحة طيّبة أو لحناً موسيقيًا عذباً كانا يتردّدان قربها. أمّا لوسي فتولّد لديها إحساس يُشبه ما تشعر به عندما تستيقظ صباحاً فتتذكّر أنّ الأعياد قد بدأت أو أنّ فرصة الصيف بدأت.

ثمّ سألت لوسي: «وماذا تخبرنا عن السيّد طمنوس؟ أين هو؟»

فقال السمُّور: «هسّ! ليس هنا. يجب ان آخذكم إلى مكانٍ فيه نقدر أن نتحدّث حديثاً طويلاً، ونتناول العشاء أيضاً».

لم يستصعب أحد، ما عدا إدمون، أن يثق بالسمُّور الآن. ولكنّ كلّ واحد منهم، بمن فيهم إدمون، سُرّ سروراً كبيراً عند سماع كلمة «العشاء». وهكذا سارع الجميع يمشون وراء صديقهم الجديد وهو يتقدّم بخطوات سريعة بشكل مدهش - ودائماً في أكثف أجزاء الغابة - مدّةً جاوزتْ ساعة واحدة. وكان الجميع قد تعبوا كثيراً وجاعوا جدًّا، حين بدأت الأشجار فجأة تصير

أقلّ كثافةً قدّامهم، كما بدأت الأرض تنحدر نحو سفح التل. وبعد دقيقة واحدة خرجوا إلى العَراء (وكانت الشمس ما تزال شارقة)، فوجدوا أنفسهم يتطلّعون إلى منظر جميل.

كانوا واقفين على حافة وادٍ ضيّق شديد الانحدار، يجري في قعره نهرٌ كبير، بل على الأقلّ كان يجري لولا أنّه متجمّد. وتحتهم تماماً كان مبنياً على عرض النهر سدٌّ ما إن رأوه حتّى تذكّر كلّ منهم أنّ السمامير تعمل سدوداً دائماً، وداخلهم يقين بأنّ السيّد سمُّوراً قد بنى هذا السّد. وكذلك أيضاً لاحظوا أنّ مسحةً من التواضع ارتسمت على وجه السمُّور، تُشبه ملامحُها ما يظهر على وجوه أشخاصٍ تزور حديقةً زرعوها، أو تقرأ قصّةً كتبوها. وهكذا كان من التأدُّب العامّ فقط أنّه لمّا قالت سوزان: «يا له من سدٍّ جميل!» لم يقل السيّد سمُّور «هُس» هذه المرّة، بل: «إنه شيءٌ بسيط! إنه شيءٌ بسيط! وهو في الحقيقة لم يكتملْ بعدُ!»

كان فوق السدّ ما يُفترَض أن يكون بِركة عميقة، ولكنّه الآن كان بالطبع أرضًا مستوية من الجليد الأخضر الغامق. أمّا تحت السدّ، تحته بكثير، فكان مزيد من الجليد. ولكن بدل أن يكون مستوياً، كان متجمّداً كلّه في الأشكال المزبدة والمتموّجة التي بها كان الماء مندفعاً لحظة مجيء الجليد. وحيث كانت المياه تسيل وتتدفّق من السدّ، قام الآن حائط جليديّ برّاق، وكأنّ جانب

السدّ مُغطّىً كلّه بالزهر والأكاليل وضفائر الورد المصنوعة كلّها من أنقى أنواع السُكّر الأبيض. وفي وسط السدّ، على جزءٍ من أعلاه، بدا بيتٌ صغير غريب الشكل، يُشبه خليّة النحل الكبيرة جدّاً. ومن ثقبٍ في السقف كان ينبعث الدخان عالياً، بحيثُ إذا رأيتَه (خصوصاً وأنت جوعان) تُفكّر حالاً في الطبخ وتصير أكثر جوعاً ممّا كنت.

ذلك كان ما لاحظه الآخرون عموماً. أمّا إدمون فلاحظ شيئاً آخر. فإلى الأسفل قليلاً من ذلك النهر، كان نهرٌ صغير آخر يجري في وادٍ آخر ليَنضمَّ إليه. وإذ تطلّع إدمون إلى ذلك الوادي، استطاع أن يرى تلّتين صغيرتين، فتأكّد له تقريباً أنّهما اللتان دلّته عليهما الساحرة البيضاء لمّا افترق عنها عند عمود الإنارة منذ بضعة أيّام. وهكذا، كما فكّر، لا بدّ أن يكون قصرها بين التلّتين، على بعدٍ لا يتعدّى الكيلومترين. ثمّ أخذ يفكّر في راحة الحلقوم، وفي أن يصير ملكاً (سائلاً نفسه: «تُرى، كم سيحبُ بطرس ذلك؟»)، فخطرت في باله أفكار رهيبة.

عندئذٍ قال السمّور: «ها قد وصلنا! ويبدو أنّ السيدة سمّورة تنتظر قدومنا. سأمشي قدّامكم. إنّما انتبهوا لئلاّ تنزلقوا».

كان أعلى السدّ عريضاً بحيث يسهل المشي عليه، مع أنّه (للبشر) ليس مكاناً ملائماً جدًّا للمشي، لأنّه

مغطّى بالجليد. ومع أنّ البركة المتجمّدة تستوي معه من جهة، فمن الجهة الأخرى كان جرفٌ عالٍ مخيفٌ يوصل إلى النهر الأسفل. على ذلك الدرب سار بهم السيّد سمّور في صفٍّ واحدٍ إلى وسط السدّ تماماً، حيث أمكنهم أن ينظروا بعيداً إلى الأعلى وبعيداً إلى الأدنى. وما إن وصلوا إلى الوسط حتّى وجدوا أنفسهم عند باب البيت.



فقال السيّد سمّور: «ها نحنُ يا سيدة سمّورة. لقد عثرتُ عليهم. ها هنا أربعة من بني آدم وبنات حوّاء...»

ثمّ دخل الجميع.

كان أوّل شيء لاحظته لوسي عندما دخلت صوت بربرة وخرخرة، وأوّل شيء رأته منظر سمّورة عجوز يبدو

عليها اللطف، قاعدة في الزاوية وبفمها خيط، تشتغل على آلة خياطتها بكلّ جدّ. ومن هذه الآلة كان الصوت طالعاً. وقد توقّفت السمّورة عن الخياطة، ونهضت حالما دخل الأولاد. وقالت، مادّةً كِلا مخلبيها المتجعّدين: «ها أنتم قد جئتم أخيراً! أخيراً! لم أكُن أظنّ أنّني سأعيش لأرى هذا اليوم! إنّ حبات البطاطا تنسلق، والغلاّية تُغنّي. هلاّ تذهب، يا سيّد سمّور، وتُحضر بعض السمك!»



فقال السمّور: «طبعاً ، بكل سرور!» ثمّ خرج من البيت، وبطرس يتبعه، وعبر جليد البركة العميقة إلى حيث كان قد حفر حفرة صغيرة في الجليد وحافظ عليها مفتوحةً بفأسه كلّ يوم. وقد أخذا معهما دلواً. ثمّ قعد السيدّ سمّور بهدوء عند حافة الحفرة (بدا انّه لا يهمّه الجليد والصقيع) وحدّق إلى داخلها تحديقاً، ثمّ أدخل

مخلبه فجأةً في الحفرة، وبأسرع من لمح البصر انتشل سمكة سلمون مرقّطة برّاقة. وأعاد الكرّة حتّى جمع عدداً ممتازاً من السمك.

في تلك الأثناء، انصرفت البنتان إلى معاونة السيّدة سمّورة بتعبئة الغلاّية وتجهيز المائدة، وتقطيع الخبز، ووضع الصحون في الفرن حتّى تسخن، وسحْب إبريق كبير من البيرة للسيّد سمّور من برميل موضوع في زاوية من زوايا البيت، ووضْع المِقلاة على النار، وتسخين زيت القلي. واعتبرت لوسي أنّ السمّورين يملكان بيتاً صغيراً مُكنكناً جدّاً، مع أنّه لم يكن مثل مغارة السيّد طمنوس قطعاً. فلم تكن هناك كُتب ولا صُوَر. وبدل التُخوت العادية، كانت أسرة مثبّتة بالحائط، كتلك التي على متن السفينة. وقد تدلّت من السقف قطع من اللحم المقدّد وبصل، وعُلّقت على الحيطان أحذية ذات سيقانٍ طويلة وأوعية جلديّة وبلطات ومقصّات ورفوش وموالج وصاجات لحمل الطين وشباك صيد وأكياس خيش. أمّا شرشف الطاولة، فكان مجعّداً جدّاً، مع أنّه نظيف تماماً.

وما إن بدأت المقلاة تطشّ وتنشّ، حتّى دخل السيد سمّور وبطرس بالسمك الذي كان السمّور قد شقّه بسكّينه ونظّفه في الهواء الطلق. ولك أن تتصوّر كم كانت رائحة السمك الطازج طيبّة وهو يُقلى، وكيف تشوّق الأولاد الجائعون أن ينضج، وكم كانوا قد جاعوا أكثر قبل أن يقول السيّد سمّور: «نكاد ننتهي الآن!»

وجفّفت سوزان حبّات البطاطا، ثمّ وضعتها من جديد في القِدر الفارغة، وتركتها قرب الموقد لتجفّ جيّداً، فيما كانت لوسي تساعد السيّدة سمّورة على وضع السمك في الصحون. وهكذا لم تمر دقائق قليلة، حتّى سحب الجميع كراسيّهم استعداداً لتلك الوجبة الممتعة. (كانت جميع الكراسيّ في بيت السمّورين بلا ظهر وذات ثلاث أرجُل، ما عدا كرسيّ السيّدة سمّورة الهزّاز قرب الموقد.) وقُدّم للأولاد إبريقٌ من الحليب الدّسِم (أمّا السيّد سمّور فما كان يشرب غير البيرة) وكتلةٌ كبيرة جدًّا من الزبدة الصفراء وُضِعت في وسط الطاولة ليأخذ كلٌّ منها بقدر ما يشاء ويدهن البطاطا بها. وقد فكّر جميع الأولاد - وأنا أوافقهم الرأي - أنْ ليس من شيء أفضل من تناول السمك الطازج إذا كان حيًّا قبل نصف ساعة وأُخرِج من المقلاة قبل دقيقة واحدة. حتّى إذا أتوا على السمك كُلّه، أخرجت السيّدة سمّورة من فرن الموقد - بصورة غير متوقّعة- كعكة مارملاد مدوّرة لزجة بشكلٍ يُسيل اللعاب، يتصاعد منها البُخار، وفي الوقت نفسه وضعت الغلّاية فوق النار، بحيث يصبح الشاي جاهزاً للسّكب حالما يُنهون كعكة المارملاد الكبيرة. ولمّا تناول كلٌّ منهم فنجان شايه، جرّوا كراسيهم ليُسنِدوا ظهورهم إلى الحائط، متنفّسين الصّعداء علامةً على الشبع والاكتفاء.

ثمّ قال السيّد سمّور، مُبعِداً عنه إبريق بيرته الفارغ ومقرّباً فنجان شايه نحوه: «والآن، لو تنتظرون حتّى



أشعِل غليوني وأُدخّن قليلاً، ثمّ نباشر عملنا في الحال!»

وبعدما ألقى نظرة خاطفة عبر النافذة، أضاف: «ها هو الثلج يتساقط من جديد. وهذا أحسن بكثير، لأنّه يعني عدم قدوم أحد لزيارتنا. وإن كان أحد قد حاول أن يتتبّعكم، فلن يجد أيّ أثرٍ لكم».

الفصل الثامن

ماذا جرى بعد الغداء؟

قالت لوسي: «والآن، نرجو منك أن تخبرنا بما حدث للسيّد طمنوس».

فقال السمُّور هازّا رأسه: «آه، ذلك سيّىء. إنّه أمر سيّىء. إنّه أمر سيّىء جدّاً جدّاً. فلا شكّ أنّ رجال الشرطة اعتقلوه. وقد أخبرني بهذا عصفورٌ رأى ما جرى».

سألت لوسي: «ولكنْ، إلى أين أخذوه؟»

«حسناً، إنّهم كانوا متوجّهين نحو الشمال آخِر مرّة شوهدوا فيها، ونحن جميعاً نعرف ما يعنيه هذا».

فقالت سوزان: «لا، فنحن لا نعرف». وهزّ السيّد سمُّور رأسه بأسىً بالغ، ثمّ قال:

«أخشى انهم كانوا يأخذونه إلى بيتها».

فسألت لوسي متلهّفة: «ولكن ماذا سيفعلون به يا سيّد سمُّور؟»

فقال السمُّور: «حسناً، لا يمكننا ان نكون متأكّدين تماماً مما يفعلونه. ولكنْ قلّما ذهب أحد إلى هناك ثمّ رجع. تماثيل! يقولون إنّ ذلك المكان مليء بالتماثيل، في الساحة

وعلى الدرج وفي القاعة. إنَّهم ناسٌ حوَّلتهم»- وهنا توقَّف قليلاً ثمَّ تابع بصوت مرتجف - «حوَّلتهم إلى تماثيل».

قالت لوسي: «ولكن، يا سيِّد سمُّور، ألا يمكننا ... أقصد يجب علينا أن نفعل شيئاً لنُخلِّصه. فالأمر رهيبٌ جداً، وأنا السبب!»

فردَّت السيِّدة سمُّورة: «لا أشكُّ أنَّك تخلِّصينه لو قدرتِ، يا عزيزتي، ولكنْ لا مجال لأنْ تدخلي ذلك البيت رغم إرادتها ثمَّ تخرجي من هناك حيَّة».

وقال بطرس: «ألا يمكن أن نرسم خطَّةً ما؟ أعني: ألا يمكن أن نتنكَّر بزيٍّ من الأزياء، أو نتظاهر مثلاً بأننا بيَّاعون جوَّالون أو ما يشبه ذلك، أو أن نراقب المكان حتَّى تخرج منه، أو ... كفى، فلا بدَّ أن توجد طريقة ما. هذا الفون أنقذ أُختي مخاطراً بحياته، يا سيِّد سمُّور. فلا يمكننا أن نتركه هناك حتَّى ... حتَّى يصير ... حتَّى يحدث له سوء».

فقال السمُّور: «هذا لا ينفع، يا ابن آدم. لا نفع في محاولتكم، من بين الناس أجمعين. أمَّا الآن وأصلان قادم ...»

«أوه، نعم، خبرِّنا عن أصلان!» هكذا قالت بضعة أصوات معاً في الحال، لأنَّ ذلك الشعور الغريب خالجهم مرَّةً أُخرى، وكان مثل تباشير الربيع، مثل الخبر الطيِّب المُبهج.

ثمَّ سألت سوزان: «ومَن هو أصلان؟»

فقال السمُّور: «أصلان؟ كيف لا تعرفون؟ إنَّه الملك! إنَّه سيِّد الغابة كلِّها، ولكنَّه لا يكون هنا أغلب الأحيان، كما ينبغي أن تعلموا. ولم يأتِ إلى الغابة في زماني، ولا زمان أبي. ولكنْ وصلنا خبر بأنَّه قد رجع. فهو في نارنيا هذه اللحظة. وسوف يحسم الأمر تماماً مع الساحرة البيضاء. فإنَّه هو، لا أنتم، مَن سيُخلِّص السيِّد طمنوس».

وسأله إدمون: «ألن تحوِّله هو أيضاً إلى حجر؟»

فأجاب السيِّد سمُّور مُقهقِهاً: «لتحل عليك الرحمة يا ابن آدم! ما أسخف أن تقول هذا: تحوِّله هو إلى حجر! إذا قدرَت أن تقف على رجليها وتتطلَّع إليه وجهاً لوجه، يكون هذا أقصى ما تقدر عليه، وأكثر ممَّا أتوقَّعه منها. كلَّا ثمَّ كلَّا! إنَّه سوف يضع كلَّ الأمور في نصابها تماماً، كما تقول قصيدة عتيقة شائعة في هذه الأنحاء:

سيـزول الظُّلم ويحلُّ الحقّ،
عندما يبدو أصلانُ للعِيان.
ولدى صوتِ زمجرته، تهربُ الأحزان من حضرته.
وحين يبدي أسنانَهُ، يلقى الشتاءُ مصرعه.
ثمَّ عندما يُنفِّض لُبدتَهُ، نشهد الربيع وعودتَهُ!

وستفهمون ذلك عندما ترَونه».

سألت سوزان: «ولكنْ هل نراه؟»

فقال السمُّور: «طبعاً، يا بنت حوَّاء، فلهذا السبب

جئتُ بكم إلى هنا وأنا سأُرشِدكم إلى حيث تقابلونه».

وسألته سوزان: «هل ... هل هو إنسان؟»

فقال السيّد سمُّور بحزم: «أصلان إنسان! حتماً لا. اقول لكِ إنّه ملك الغابة وابن إمبراطور ما وراء البحر العظيم. ألا تعرفين من هو ملك الحيوانات كلّها؟ أصلان أسد. إنّه الأسد، الأسد العظيم!»

قالت سوزان: «أووه! كنتُ أظنُّ أنّه مجرّد إنسان. فهل هو مأمون تماماً؟ أكاد أشعر بالتوتّر من مقابلة أسد».

فقالت السيّدة سمُّورة: «لا بدَّ من هذا الشعور، يا عزيزتي، بلا شكّ. فلو وُجد أحد يقدر ان يقف أمام أصلان بغير ان تصطكَّ ركبتاه، لكان إمّا أشجع الجميع وإمّا مجرّد ساذج مجنون».

قالت لوسي: «إذاً، هو غير مأمون؟»

أجاب السيّد سمُّور: «مأمون؟ ألا تسمعين ما قالته السيّدة سمُّورة؟ ومَن قال أيّ شيء عن الأمان؟ طبعاً، هو غير مأمون. ولكنّه طيّب وصالح. فأنا أقول لكم إنّه الملك».

وقال بطرس: «أنا متشوّق لرؤيته، مع أنّي أشعر بالرهبة حقًّا من مقابلتِه».

فقال السيّد سمُّور: «هذا صحيح، يا ابن آدم»، ضارباً الطاولة بمخلبه ضربةً جعلت الفناجين والصحون تُطرطِق. وتابع يقول: «ولكنْ سترونه حتماً. فقد وصلني خبر بأنّه يجب أن تُقابلوه، غداً إذا أمكن، عند طاولة الحجر».

سألت لوسي: «وأين هي؟»

فقال السمُّور: «سأدلُّكم عليها. إنّها أسفل النهر، وتبعد عنّا مسافةً لا بأس بها. وأنا سآخذكم إليها».

وقالت لوسي: «ولكنْ في هذه الأثناء، ماذا عن السيّد طمنوس المسكين؟»

فقال السيّد سمُّور: «أسرع طريقة يمكنكم بها أن تساعدوه هي أن تذهبوا لمقابلة أصلان. فما إن يصير معنا، حتّى نقدر أن نُباشِر أمورنا. وهذا لا يعني أنّنا نستغني عنكم أيضاً. لأنَّ قصيدة قديمة أُخرى تقول:

عندما يجلس لحمُ آدمَ وعظم آدَمْ
على العرش في كَيرِبرافيل،
ينتهي زمان الشرّ ويُعدَم!

وعليه، فلا بدَّ أن تكون الأُمور الآن آخذة في الاقتراب إلى خاتمتها ما دام هو قد جاء وأنتم هنا. لقد سمعنا أنَّ أصلان أتى إلى هذه الأنحاء، وذلك من زمان بعيد لا يقدر أحد أن يحدّده. ولكنْ لم يسبِقْ أن جاء إلى هنا واحدٌ من جنسكم قبل الآن».

قال بطرس: «ذلك هو ما لا أفهمه، يا سيّد سمُّور. أعني: أليست الساحرة نفسها كائناً بشرياً؟»

فقال السمُّور: «هذا هو ما تتمنّى أن نصدّقه، وعلى أساسه تبني ادّعاءها بأنّها ملكة. لكنّها ليست من بنات

حوّاء. بل هي سليلة ...» وهنا حنى السمُّور رأسه: «هي سليلة زوجة آدم أبيكم الأولى، التي يدعونها 'ليليث' *، وقد كانت من الجنّ. هذا أصلها من الجهة الأولى. أمّا من الجهة الأخرى فهي من نسل العمالقة. كلّا أبداً، ليس في عروق الساحرة نقطة واحدة من الدم البشريّ الحقيقيّ!»

وقالت السيّدة سمُّورة: «ولذلك هي شرّيرة على الدوام، يا سيّد سمُّور».

فردّ قائلاً: «صحيح تماماً، يا سيّدة سمُّورة! فقد يوجد رأيان بشأن البشر (ولا أقصد إهانة ضيوفنا الآن)، ولكنْ الرأي واحد بشأن الأشياء التي تبدو شبيهة بالبشر ولكنّها ليست بشراً».

وقالت السيّدة سمُّورة: «لقد تعرّفت بأقزام طيّبين».

فقال زوجها: «وأنا كذلك، ما دمتِ قد ذكرتِ هذا الآن. ولكنّهم قلّة نادرة، وكانوا أولئك الأقلّ شبهاً بالبشر. إنما على العموم، خذوا منّي هذه النصيحة: أبقوا أعينكم مفتوحة جيّداً، وأيديكم على مسكة البلطة، حين تقابلون أيّ كائن سوف يصير بشريًا لكنه لم يصر، أو كان بشريًا في الماضي وليس هكذا الآن، أو ينبغي أن يكون بشريًا وما

* ليليث: بحسب الأسطورة، فإن ليليث جنية، وكانت زوجة آدم الأولى، ولكنها تركتْهُ وتزوّجت من أحد العمالقة. سبّب هذا شعور آدم بالوحدة، فما كان من الله إلا أن أرسل له حواء.

هو بشريّ. ولهذا السبب تفتّش الساحرة دائماً عن أيّ بشريّين في نارنيا. فما زالت تتربّص بكم منذ سنين عديدة، ولو عرفت أنّ هنا أربعةً منكم، لكانت أشدّ خطراً».

فسأل بطرس: «وما دخل هذا بالموضوع؟»

فردّ السيد سمُّور: «بسبب نبوّة أخرى. ففي كَيرپرافيل، وهو القصر المبنيّ على الساحل عند مصبّ هذا النهر، وكان يجب أن يكون هو عاصمة هذا البلد كلّه لو كانت الأمور في نصابها، في كَيرپرافيل أربعةُ عروش. ويقولون في نارنيا منذ زمان لا يتذكّره أحد إنّه حين يجلس على هذه العروش الأربعة اثنان من بني آدم واثنتان من بنات حوّاء فحينئذٍ تكون لا نهاية ملك الساحرة البيضاء فقط بل نهاية حياتها أيضاً. ولهذا السبب كان علينا أن نتوخّى الحذر الشديد ونحنُ آتون إلى هُنا، لأنّها إن علمت بأمركم أنتم الأربعة لا تكون لحياتكم أيّ قيمة في نظرها، ويسهل عليها إيذاؤكم كما يسهل عليّ أن أهزّ شواربي!»

كان جميع الأولاد يصغون بكلّ انتباه إلى ما يقوله لهم السيّد سمُّور، حتّى إنّهم لم يلاحظوا أيّ شيء آخر وقتاً طويلاً. ثمّ في أثناء لحظة الصمت التي تلت قوله الأخير، قالت لوسي فجأةً:

«يوه! أين إدمون؟»

وساد صمتٌ قصير رهيب، ثمّ بدأ كلٌّ واحد يسأل: «مَن رآه أخيراً؟ منذ متى ضاع؟ أهو في الخارج؟» ثمّ اندفع الجميع خارجاً يُفتّشون عنه. كان الثلج يتساقط

بغزارة وبلا انقطاع، وقد اختفى جليد البركة الأخضر تحت غطاء أبيض كثيف، ولم يكُن يمكنك أن ترى ضفَّتَي النهر بوضوح من قدّام البيت الصغير وسط السدّ. وإذ اندفع الجميع خارجاً، غاصت أقدامهم في الثلج الجديد الطريّ إلى ما فوق كواحلهم، وتفرّقوا حول البيت في كلّ اتّجاه، مُنادين: «إدمون! إدمون!» حتّى بُحّت أصواتهم. ولكنّ بدا أن الثلج المتساقط بهدوء كتم أصواتهم، فلم يسمعوا ولو صدىً يجاوبهم.

ولمّا رجعوا يائسين أخيراً، قالت سوزان: «ما أرهب هذا! كم أتمنّى لو لم نأتِ قطّ!»

وسأل بطرس: «ماذا يمكننا أن نفعل يا تُرى؟»

فقال السيّد سمُّور وهو يلبس جزمة الثلج: «نفعل؟ نفعل؟ علينا أن ننطلق حالاً. ليس لدينا لحظة واحدة نُضيّعها!»

وقال بطرس: «أفضلُ أن ننقسم أربعة فرقٍ للتفتيش،

فينطلق كلّ إلى جهة. وأيُّ مَن يجد إدمون، يجب أن يرجع إلى هنا حالاً، و ...»

فقال السمُّور: «فِرَق للتفتيش، يا ابن آدم؟ لماذا؟»

«لماذا؟ للتفتيش عن إدمون طبعاً!»

أجاب السمُّور: «لا نفع في التفتيش عنه!»

فقالت سوزان: «ماذا تعني؟ لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيراً الآن. وعلينا أن نعثر عليه. فماذا تعني بقولك إنّه لا فائدة مِن التفتيش عنه؟»

قال السمُّور: «إنّ سبب عدم نفع التفتيش عنه هو أنّنا نعرف إلى أين ذهب!» فحدّق الجميع في ذهول، وتابع السمُّور يقول: «أمَا تفهمون؟ لقد ذهب إليها، إلى الساحرة البيضاء. لقد خاننا كلَّنا!»

فقالت سوزان: «أوه، يقيناً... أوه، حقاً! لا يمكنه أن يكون قد فعل هذا!»

«لا يُمكِنه؟» قالها السيّد سمُّور وهو يُحدّق إلى الأولاد الثلاثة تحديقاً حاداً جداً، وتلاشى على شفاههم كل ما أرادوا أن يقولوه، لأنّ كلّ واحد منهم تأكّد فجأةً في داخله أنّ ذلك هو ما عمله إدمون تماماً.

وقال بطرس: «ولكنّ، هل يعرف الطريق؟»

فسأل السيّد سمُّور: «هل جاء إلى هذه البلاد قبلاً؟ هل جاء مرّةً إلى هُنا وحدَه؟»

أجابت لوسي هامسةً: «نعم! لقد جاء، واأسفاه!»

«وهل خبّركم بما فعل أو مَن قابل؟»

قالت لوسي: «لا، لم يخبرنا!»

فأجاب السمُّور: «إذاً، انتبهوا إلى كلامي جيدًا: لقد قابل الساحرة البيضاء فعلاً وانضمَّ إلى صفِّها، وقالت له أين تسكن. لم أرغب أن أذكر هذا قبلاً (لأنَّه أخوكم وكلُّ شيء)، ولكنَّ لحظة وقع نظري على أخيكم هذا قلتُ لنفسي: خائن! فقد كان مظهره مظهر مَن قابل الساحرة وأكل من طعامها. ولو عشتم في نارنيا طويلاً، لأمكنكم دائماً تمييز هؤلاء من شيء ما في عيونهم!»

وقال بطرس بصوت يكاد يختنق: «مهما كان، يجب علينا أيضاً أن نذهب ونبحث عنه. فهو أخونا رغم كلّ شيء، ولو كان حقيراً صغيراً. وما هو إلّا ولد!»

فقالت السيِّدة سمُّورة: «أتذهبون إلى بيت الساحرة؟ ألا تعرفون أنَّ الفرصة الوحيدة لتخليص أخيكم، كما لإنقاذ أنفسكم، هي بأن تظلُّوا بعيدين عنها؟»

قالت لوسي: «ماذا تقصدين؟»

«حسناً، إنَّ كلَّ ما تريده هو القبض عليكم أنتم الأربعة جميعاً. (إنَّها لا تفكِّر دائماً إلَّا بتلك العروش الأربعة في كَيرپرافيل). فحالما تصيرون أنتم الأربعة داخل بيتها، يكون عملها قد تمَّ، وتصيرون أربعة تماثيل جديدة في تشكيلتها قبل أن يُتاح لكم النطق بكلمة واحدة. ولكنَّها ستُبقيه حيًا ما دام هو الوحيد الذي وقع بيدها، لأنها تريد أن تستعمله كفخّ، كطُعمٍ يمكِّنها من الإمساك بكم أنتم الباقين».

فقالت لوسي مُولوِلة: «آه، ألا يقدر أحد أن يساعدنا؟»

قال السيِّد سمُّور: «لا أحد إلَّا أصلان وحده! فعلينا أن ننطلق ونقابله. هذه فرصتنا الوحيدة الآن».

وقالت السمُّورة: «يبدو لي، يا أعزّائي، أنَّه من المهمّ جدًا أن نعرف متى انسلَّ وذهب بالضبط. فمقدار ما يمكنه أن يخبرها به يتوقَّف على مقدار ما سمعه. مثلاً، هل بدأنا الحديث عن أصلان قبلما ذهب؟ إن كان لا، فعندئذٍ قد ننجح، لأنَّها لا تعرف أنَّ أصلان قد جاء إلى نارنيا، ولا أنَّنا نبتغي مقابلته. وهكذا لا تأخذ حذرها أبداً من جهة هذا الموضوع».

فبدأ بطرس يقول: «لا أذكر أنَّه كان هنا ونحن نتحدَّث عن أصلان...» ولكنَّ لوسي قاطعته وقالت بحزن: «لا، بل كان هنا. أما تذكرون أنَّه هو الذي سأل هل تقدر الساحرة على تحويل أصلان أيضاً إلى حجر؟»

فقال بطرس: «عجباً! لقد كان هُنا. ثمّ إنَّ هذا من نوع الأسئلة التي يطرحُها دائماً!»

وقال السيِّد سمُّور: «وهذا يزيد الأمر سوءاً أكثر. أمّا الأمر الثاني فهو هذا: أكان ما يزال هُنا لمَّا قلتُ لكم إنَّ مكان لقاء أصلان هو طاولة الحجر؟»

وبالطبع، لم يعرف أحدٌ جواب هذا السؤال. فتابع السيِّد سمُّور يقول:

«لأنَّه إن كان هنا حينذاك، فما عليها عندئذٍ إلَّا أن

تركب مزلجتها وتنزل في ذلك الاتّجاه، وتعترض بيننا وبين طاولة الحجر فتقبض علينا ونحن نازلون إليها. وهكذا تفصلنا عن أصلان فعلاً».

فقالت السيّدة سمّورة: «ولكنْ ليس هذا هو أوّل شيء ستعمله. فأنا أعرفها! فما إن يقول لها إدمون إنّنا هنا، حتّى تنطلق للقبض علينا هذه الليلة بالذات. وإن كان قد ذهب منذ نصف ساعة تقريباً، فإنّها ستكون هنا بعد نحو عشرين دقيقة من الآن!»

وقال زوجها: «أنتِ على حقّ، يا ستّ سمّورة. علينا جميعاً أن نبتعد من هنا حالاً. فليس عندنا لحظة واحدة نُضيّعها!»

الفصل التاسع

في بيت الساحرة

والآن تريد طبعاً أن تعرف ما حصل لإدمون. فإنّه أكل حصّته من الغداء، ولكنّه لم يتمتّع بها فعلاً لأنّه كان يفكّر طوال الوقت براحة الحلقوم: وليس ما يُفسِد طعم الأكل الجيّد المعتاد مثل ما تفسده ذكرى الطعام السحريّ. وقد سمع إدمون الحديث، ولم يستمتع به أيضاً، لأنّه كان يفكّر بأنّ الآخرين لا يُعيرونه اهتماماً بل ينفرون منه بالأحرى. هكذا تصوّر هو، لكنّهم في الحقيقة لم يعملوا ذلك. ثمّ إنّه ظلّ يُصغي حتّى أخبرهم السيّد سمّور عن أصلان، وحتّى سمع بالاتّفاق على مقابلة أصلان عند طاولة الحجر. عندئذٍ بدأ يندسّ بهدوء وراء الستارة المعلّقة على الباب. وذلك لأنّ ذِكر أصلان بعث فيه شعوراً غامضاً ورهيباً، مثلما بعث في الآخرين شعوراً غامضاً وبهيجاً.

فبينما كان السيّد سمّور يتلو أبيات الشعر التي يُذكَر فيها «لحم آدم وعظم آدم»، أدار إدمون مسكة الباب بمنتهى الهدوء. وقبل قليل من بدء السيّد سمّور إخباره إيّاهم بأنّ الساحرة لم تكن بشريّة على الإطلاق بل نصف جنّية

ونصف عملاقة، كان إدمون قد انسلَّ خارجاً إلى الثلج وأغلق الباب وراءه بحذر.

لا ينبغي لك أن تعتبر إدمون، ولو في تلك اللحظة، سيِّئاً جدًّا بحيث كان يريد أنْ يتحوَّل أخوه وأُختاه إلى حجارة. فهو إنَّما أراد راحة الحلقوم وأن يصير أميراً (ثمَّ ملكاً في ما بعد)، وأن ينتقم من بطرس لأنَّه دعاه وحشاً. أمَّا من جهة ما قد تفعله الساحرة بالآخرين، فهو لم يرِد منها أن تعاملهم بلطفٍ على الخصوص، وبالتأكيد ألاَّ تضعهم وإيَّاه على مستوى واحد؛ ولكنَّه جعل نفسه يعتقد- أو تظاهر بأنَّه اعتقد - أنَّها لن تفعل بهم سوءاً بالغاً. وذلك، كما قال لنفسه: «لأنَّ جميع هؤلاء الناس الذين يقولون عنها أموراً رديئة هم أعداؤها، ونصف ما يقولونه على الأرجح غيرُ صحيح. وعلى كلِّ حال، فقد كانت لطيفة معي، ألطف منهم جميعاً. وأنا أعتقد أنَّها الملكة الشرعيَّة حقًّا. ومهما كان، فستكون أفضل من أصلان ذاك الفظيع!» على الأقلّ، كان ذلك هو العذر الذي اصطنعه في فكره لما يفعله. غير أنَّه لم يكن عذراً جيِّداً جدًّا، لأنَّه في صميم قلبه عرف بالحقيقة أنَّ الساحرة البيضاء كانت شريرة وقاسية القلب.

وأوَّل شيء تبيَّن له لمَّا خرج خارجاً، ووجد الثلج يتساقط حواليه، أنَّه ترك معطفه في بيت السمُّورين. وبالطبع لم تكن لديه فرصة حتَّى يرجع لإحضاره الآن. أمَّا ثاني شيء تبيَّن له فهو أنَّ النهار كاد ينقضي، لأنَّهم لمَّا

جلسوا إلى الغداء كانت الساعة نحو الثالثة عصراً، والنهار في الشتاء قصير. ولم يكن قد حسب لهذا حساباً، إلَّا أنَّه وجب عليه أن يواجهه بأحسن طريقة. فرفع قبَّته، وجرَّ رجليه على أعلى السدِّ إلى الجانب الأبعد للنهر (ومن الخير أنَّ الطريق على السدِّ لم يكن زلقاً بعدما سقط الثلج).

كان الوضع سيِّئاً للغاية لما وصل إلى الجانب الأبعد. فقد كان الظلام يشتدُّ كلَّ لحظة، الأمر الذي زاده تساقط رقائق الثلج سوءاً، حتَّى لم يكُن إدمون يقدر أن يرى قدَّامه إلا مسافة متر واحد. ثمَّ إنَّه لم يجد أيَّ طريق أيضاً. فظلَّ ينزلق في مَهاوٍ عميقة من الثلج، ويسقط في البِرَك الصغيرة المتجمِّدة، ويتعثَّر بجذوع الأشجار الساقطة، ويزلُّ على ضفاف الجداول المنحدرة، ويُخدِّش ركبته بالصخور، حتى تبلَّل جسمُه وأصابه البرد وترضَّض كلُّه. وكان الصمت والوحدة رهيبَين. وبالحقيقة، أعتقد فعلاً أنَّه كان يمكن أن يتخلَّى عن الخطَّة كلِّها ويرجع عائداً فيعترف بخطإه ويتصالح مع الباقين، لو أنَّه لم يصدف أن قال لنفسه: «عندما أصير ملك نارنيا، فأوَّل شيء سأفعله هو أن أشقَّ بعض الطرق الجيدة». وبالطبع، حوَّل هذا تفكيره نحو تتويجه ملكاً، ونحو الأمور الأُخرى التي سيفعلها، ممَّا أبهجه إلى حدٍّ بعيد. وما إن قرَّر في فكرة أيَّ قصر سيكون له، وكم عَرَبة، وكلَّ ما يتعلَّق بالسينما الخاصَّة التي سيُنشئها، وأين ستمتدُّ سكك القطارات،

وأيّ قوانين سيضع ضدّ السمامير والسدود، وأخذ يضع اللمسات الأخيرة على بعض الخطط التي ستُوقِف بطرس عند حدِّه، حتّى تغيّر الطقس حالاً. فأوّلاً، انقطع سقوط الثلج. ثمّ هبّت ريح، وعمّت البرودة والصقيع. وأخيراً انقشعت الغيوم وطلع القمر بدراً مُشرقاً على تلك الثلوج كلّها، فحوّل كلّ شيء منيراً ومتألّقاً بما يُشبه النهار. إلّا أنّ الظِلال وحدها كانت مُربِكة.

ولم يكُن ليهتدي إلى طريقه لو لم يطلع القمر قبل وصوله إلى النهر الآخر الذي سبق أن رآه، كما تذكُر (لمّا وصلوا أوّل مرّة إلى بيت السمّورَين)، وكان نهراً أصغر يصبّ في النهر الكبير عند الأسفل. فالآنَ وصل إلى ذلك النهر، وانعطف حتّى يتبع مجراه صعوداً. غير أنّ الوادي

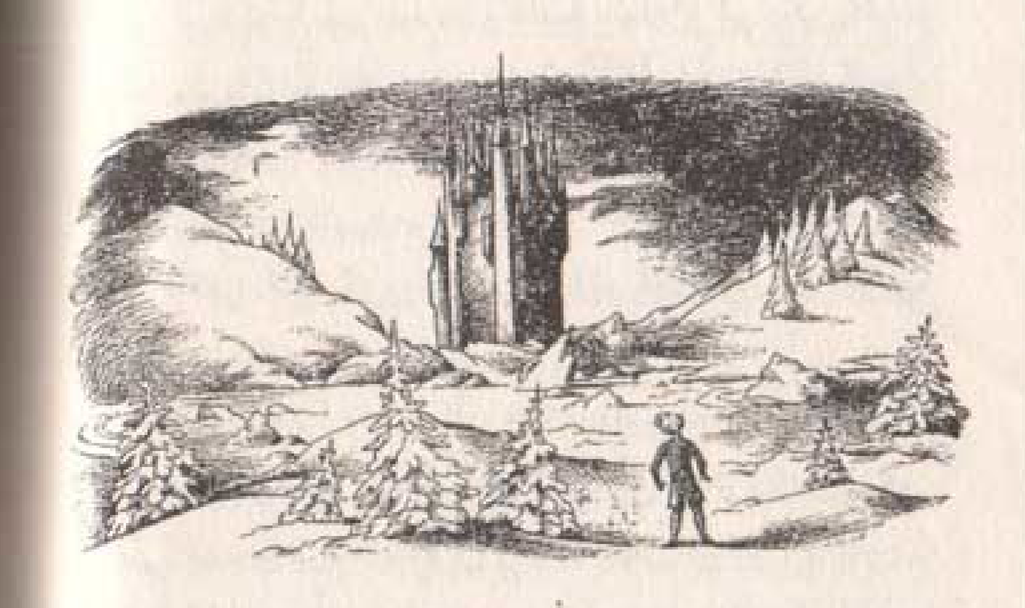


الذي جرى فيه النهر الصغير كان أكثر انحداراً وصخوراً من النهر الذي غادره توّاً، كما كان أكثر منه شجراً وعُلّيقاً،

حتّى لو أراد السير بمحاذاته وسط الظلام لم يكُن ذلك ممكناً له. بل إنّه على هذه الحال أيضاً، تبلّل بالماء كثيراً، إذ وجب عليه أن ينحني تحت الأغصان، فانزلقت على ظهره كمّيّات كثيرة من الثلج. وكلّما حدث ذلك، فكّر أكثر فأكثر بكم يكره بطرس، كما لو كان هذا كلّه بسبب غلطة من بطرس.

ولكنّه أخيراً وصل إلى مكان أكثر انبساطاً واستواءً، اتسع فيه الوادي. وهناك، على الضفّة الأُخرى من النهر، وعلى مسافة قريبة منه، في وسط سهل صغير بين تلّتين، شاهد ما لا بدّ أنه بيت الساحرة البيضاء. وقد كان القمر أكثر إشعاعاً من ذي قبل. وكان البيت بالحقيقة قلعة صغيرة، وبدا أنّه مجموعة أبراج: أبراج صغيرة ذات رؤوس طويلة مستدقّة، حادّة كالإبَر، وقد بدت مثل قُبّعات البهاليل الكبيرة أو مثل قُبّعات السَحَرة. وكانت هذه الأبراج تتألّق تحت ضوء القمر وكانت تلقي ظِلالاً ظهرت غريبة الأشكال على الثلج. وبدأ إدمون يشعر بالخوف من ذلك البيت.

ولكنّ أوان التفكير في العودة الآن كان قد فات. فعبر النهر فوق الجليد ومشى صاعداً نحو البيت. لم يكُن شيء يتحرّك، ولا سُمع أدنى صوت في أيّ مكان. حتّى إنّ قدميه أنفسهما لم تُحدِثا أي صوت على الثلج الساقط حديثاً. فراح يمشي ويمشي، متجاوزاً زاوية من البيت بعد أُخرى، وبُرجاً تلو بُرج، ليعثر على المدخل. واضطُرّ أن



يدور حول البيت إلى الجهة القُصوى حتّى يجده، وكان قوساً ضخماً، إلّا أنّ الأبواب الحديدية الكبيرة كانت مفتوحة على وسعها.

تقدّم إدمون إلى القوس على مهل، وتطلّع إلى الساحة الداخليّة، فإذا به يرى هناك منظراً كاد يُوقِف دقّات قلبه. فداخل البّوابة تماماً، تحت ضوء القمر الساطع، كان أسدٌ هائل رابضاً وكأنّه مُتحفّز للوثوب. ووقف إدمون تحت ظلّ القوس، خائفاً أن يتراجع، وركبتاه تصطكّان. وقد طال وقوفه هناك حتّى كان لا بدّ أن تصطكّ أسنانه من البرد إن لم يكن من الخوف. ولا أدري بالحقيقة كم دام ذلك، إلّا أنّ إدمون حسبه دام ساعات.

ثمّ أخيراً بدأ يتساءل عن سبب هدوء الأسد البالغ، لأنّه لم يحرّك ساكناً منذ وقعت عيناه عليه. وبعدئذٍ

جازف إدمون بالتقدّم قليلاً، باقياً في ظلّ القوس بقدْر الإمكان. إذ ذاك تبيّن له من وضعيّة الأسد أنّه لا يمكن أن يكون ناظراً إليه أبداً. (إنّما شغل باله هذا الفِكر: «تُرى، ماذا يمكن أن يحدث إذا حوّل رأسه؟»). لكنّه بالحقيقة كان يُحدّق إلى شيء آخر، وتحديداً إلى قزم صغير واقف على بُعدِ متر تقريباً، مُديراً له ظهره. ففكّر إدمون: «آهه! عندما يَثِب على القزم، تكون فرصتي للهرب». إلا أنّ الأسد لم يتحرّك قطّ، ولا تحرّك القزم كذلك. ثمّ تذكّر إدمون أخيراً ما قاله الآخرون عن تحويل الساحرة البيضاء للأشخاص إلى حجارة. فربّما كان هذا مجرّد أسد من حجر! وما إن فكّر بذلك، حتّى لاحظ أنّ ظهر الأسد وأعلى رأسه قد غطّاهما الثلج. طبعاً، لا بدّ أنّه مجرّد تمثال! فما من حيوان حيّ يقبل أن يُغطّيه الثلج. ثم استجرأ إدمون أن يتقدّم من الأسد، بكلّ بطء، وقلبه يدقّ كأنّه

سينفجر. وما كاد يجرؤ الآن أيضاً على لمس الأسد. إلّا أنّه أخيراً مدّ يده بمنتهى السرعة ولمسه، فإذا هو حجر بارد. كان خائفاً من مجرّد تمثال!

كانت الراحة التي أحسّها إدمون عظيمة جدًّا، حتّى إنّه على الرغم من البرد الشديد شعر بالدفء يغمره حتّى أصابع قدميه. وفي الوقت نفسه خطرت على باله فكرة بدت مُحبّبة جدًّا: «لعلّ هذا هو الأسد العظيم أصلان الذي طالما تحدّثوا عنه. لقد وقع بيدها فعلاً، فحوّلته إلى حجر. إذاً، هذه نهاية كلّ أفكارهم الحلوة عنه! هَه! مَن يخشى أصلان الآن؟»

وهكذا وقف إدمون هناك شامتاً بالأسد الحجريّ، وبادر إلى فعلةٍ صبيانيّة قبيحة جدًّا. فقد سحب من جيبه عَقِب قلم رصاص وخربش شوارب فوق شفة الأسد العُليا، ثمّ نظّارتين على عينيه. وقال: «ياه! يا لأصلان العجوز القبيح! أيعجبُك كونُك حجراً؟ لقد حسبتَ نفسك قوياً جدّاً، أليس هكذا؟» ولكنّ وجه الحيوان الحجريّ العظيم، رغم الخربشات، ظلّ يبدو مروّعاً وحزيناً ونبيلاً جدًّا، وهو يُحدّق إلى فوق في ضوء القمر، بحيث إنّ إدمون ما جنى بالحقيقة أيّ مرَح من الاستهزاء به. فأدار ظهره وأخذ يعبر ساحة الدار.

وما إن بلغ وسط الساحة، حتّى رأى حواليه عشرات التماثيل، منتشرة هنا وهناك كأنّها حجارة شطرنج على رقعتها في منتصف اللعب. وكان بينها ساطيرات من

حجر، وذئاب من حجر، ودببة وثعالب وقطط بريّة كلّها من حجر. وبينها أشكال حجريّة جميلة بدت مثل النساء، لكنّها كانت بالحقيقة أرواح أشجار. كما كان هناك تمثال عظيم لقنطور وحصان مُجنّح ومخلوق رخوٍ طويل حسبه إدمون تنّيناً. وقد بدت هذه الكائنات كلّها غريبة وهي واقفة هناك كأنّها نابضة بالحياة، إلّا أنّها أيضاً ساكنة سكوناً تامًّا، تحت ضوء القمر اللامع البارد، بحيث كان عبور ساحة الدار عملاً مُخيفاً موحشاً. وفي وسط الساحة تمامًا قام شكلٌ ضخم يشبه إنساناً، لكنّه بطول شجرة، وله وجه شرس ولحية منفوشة، وبيده اليُمنى عصا ضخمة. ومع أنّ إدمون عرف أنّ ذلك كان مجرّد مارد من حجر، لا مارداً حياً، فقد كره أن يمرّ بقربه.

عندئذٍ لاحظ إدمون وجود نور ضعيف مُنبعِث من مدخلٍ في الطرف الأقصى من الساحة. فتوجّه نحوه، فوجد درجاً حجريًّا يؤدّي إلى باب مفتوح. فصعد الدرج، وإذا على العتبة ذئبٌ كبير مُستلق.

راح إدمون يُحدّث نفسه: «لا بأس، لا بأس! إنّه مجرّد ذئب من حجر، ولا يمكن أن يؤذيَني»، ثمّ رفع رجله حتّى يتخطّاه. وفي الحال نهض المخلوق الضخم، وقد قفّ كلّ شعره على طول ظهره، وفتح فماً أحمر كبيراً، وقال بصوت هدّار:

«مَن هُنا؟ مَن هنا؟ مكانك، يا غريب، وقُل لي من أنت».



فقال إدمون وهو يرتجف حتّى لم يكد يقدر أن يتكلّم: «لو سمحتَ، يا سِيدي! إسمي إدمون، وأنا ابن آدم الذي قابلَتْهُ جلالة الملكة في الغابة منذ أيّام، وقد جئتُ لأبلّغها خبر قُدوم أخي وأُختيّ إلى نارْنيا، وهم قريبون جدّاً من هنا، في بيت السمُّورَين. وهي - هي أرادت مقابلتهم».

قال الذئب: «سأقول لجلالتها. وفي هذا الوقت، قفْ على العتبة بلا حراك، إن كانت حياتك عزيزة عندك!» ثُمَّ توارى داخل البيت.

وقف إدمون ينتظر، وأصابعه تؤلمه من البرد، وقلبه يدقُّ باضطرابٍ داخل صدره. وبعد هُنيهة، عاد الذئب غدّار، رئيسُ شرطة الساحرة السرية، يقفز قفزاً، وقال: «تفضّل! ادخل! يا فتًى محظوظاً ينعم برضى الملكة، ولولا ذلك لكان حظُّك سيئاً!» ثمّ تمدّد حيث كان.

فدخل إدمون، باذلاً كلّ حرص على ألّا يدوس مخالبَ الذئب. وإذا به في قاعة مستطيلة كئيبة ذات أعمدة كثيرة، ملؤها التماثيل، مثلها مثل ساحة الدار التي كان فيها. وكان التمثال الأقرب إلى الباب فُوناً صغيراً تبدو على وجهه ملامح الحزن الشديد، لم يتمالك إدمون نفسه عن التساؤل: «أهو صديق لوسي؟» أمّا النور الوحيد في القاعة فقد كان ينبعث من مصباح وحيد، بقربه تماماً قعدت الساحرة البيضاء.

اندفع إدمون إلى الأمام متلهّفاً، وقال: «لقد جئتُ، يا صاحبة الجلالة!»

فقالت الساحرة بصوتٍ رهيب: «كيف استجرأتَ أن تأتي وحدك؟ أمَا قلتُ لك أن تُحضِر الآخرين؟»

قال إدمون: «من فضلك، يا صاحبة الجلالة، لقد بذلتُ كلّ جهدي. أحضرتُهم إلى مكانٍ قريبٍ جدًّا. إنّهم

في البيت الصغير على أعلى السدّ، فوق النهر تماماً، عند السيِّد سمُّور والسيِّدة سمُّورة».

فارتسمت على وجه الساحرة ابتسامة فظّة فاترة. وسألته:

«أهذا كلُّ ما عندك من أخبار؟»

قال إدمون: «لا، يا صاحبة الجلالة»، ثمّ مضى يخبرها بكلّ ما سمعه قبل مغادرته بيت السمُّورَين.

وصاحت الملكة: «ماذا! أصلان؟ أصلان! أهذا صحيح؟ إذا تبيَّن لي أنك كذبت عليّ...»

فأجاب متلعثماً: «عفواً، إنّني أُكرِّر ما قالوه فقط».

لكنّ الملكة، التي لم تعُدْ تصْغي إلى كلامه بعد، صفّقت بيديها. وفي الحال حضر القزم نفسه الذي سبق أن رآه إدمون معها. فأمرته قائلةً:

«حضِّر لنا مزلجتنا، مستخدماً طقم الغزالين إنّما بغير الأجراس!»

الفصل العاشر

السِّحر يضعف

علينا الآن أن نرجع إلى السيِّد سمُّور والسيِّدة سمُّورة والأولاد الثلاثة الآخرين. فما إن قال السمُّور: «لا وقت عندنا حتّى نضيِّعه»، حتّى بدأ الجميع يتلفّفون بمعاطفهم، ما عدا السيِّدة سمُّورة، فهي بدأت تنتقي أكياساً وتضعها على الطاولة، وقالت: «والآن، يا سيِّد سمُّور، هلّا تُنزِل لي قطعة اللحم المقدَّدة هذه. وهنا علبة شاي، وهاك السُّكر، وبعض عيدان الكبريت. وهلّا يأتي أحدكم برغيفين أو ثلاثة من وعاء الخبز هناك في الزاوية!»

وصاحت سوزان متعجّبة: «ماذا تفعلين، سيِّدة سمُّورة؟»

فقالت السمُّورة بكلّ برودة: «أحزم زوّادة لكلّ منكم، يا عزيزي. أنت لا تظنين أنّه يمكننا الانطلاق في سَفرتنا وليس معنا ما نأكله. أليس هكذا؟»

قالت سوزان وهي تُزرِّر قبّة معطفها: «ولكنْ لا وقتَ لدينا. فقد تصل إلى هنا في أيّ لحظة!»

وقال السمُّور مقاطعاً: «ذلك ما أقوله أنا أيضاً».

فقالت زوجته: «ليُدبِّر كل منّا أمره. فكِّر في المسألة، يا سيِّد سمُّور. لا يمكن أن تصل إلى هنا قبل ربع ساعة على الأقلّ!»

وقال بطرس: «ولكنْ ألا يجب أن ننطلق بأسرع ما يمكن إن أردنا الوصول إلى طاولة الحجر قبلها؟»

فقالت سوزان: «لا بدَّ أن تتذكَّري هذا الأمر، يا سيِّدة سمُّورة. فحالما تتطلَّع إلى هنا ولا تجدنا في الداخل، ستنطلق وراءنا بأقصى سرعتها».

قالت السمُّورة: «طبعاً، ستفعل هذا. ولكنْ لن نتمكَّن من الوصول إلى هناك قبلها مهما فعلْنا، لأنَّها ستكون راكبةً مزلجتها فيما نكون نحن ماشين على أقدامنا!»

فقالت سوزان: «أليس عندنا أملٌ إذاً؟»

قالت السمُّورة: «بلى، إنَّما لا تضطربي، بل أحضِري من ذلك الجارور ستّة مناديل نظيفة. طبعاً، عندنا أمل. فلا نقدر أن نصل إلى هناك قبلَها، ولكنّنا نستطيع أن نظلَّ مختبئين، ونسلك طُرقاً لا تتوقعها هي، وعسى نُفلِت من يدها!»

وقال زوجها: «صحيحٌ تماماً، يا ستُّ سمُّورة. ولكنْ حان وقت الخروج من هنا».

فقالت: «ولا تهتج مضطرباً يا سيِّد سمُّور. فهاك – وهذا أفضل – خمس زوّادات، وأخفُّها لأصغرنا: أقصدكِ أنتِ، يا عزيزتي (مُلتفِتةً إلى لوسي)!»

قالت لوسي: «أوه، هيّا من فضلكِ!»

فأجابت السمُّورة أخيراً: «طيِّب، أنا حاضرة تقريباً الآن!» سامحةً لزوجها بأن يساعدها على لبس جزمتها، ومُضيفةً: «أعتقد أنَّ آلة الخياطة أثقل من أن نحملها معنا!»

فقال السمُّور: «نعم، هي كذلك. إنّها ثقيلة جدًّا جدًّا. وأنتِ لا تحسبين أنَّكِ ستقدرين أن تستعمليها ونحن هاربون، كما أظن!»

وقالت السمُّورة: «لا أُطيق فكرة عبث الساحرة بها، والأرجح جداً أن تكسرها أو تسرقها».

فقال الأولاد الثلاثة معاً: «أوه، رجاءً، رجاءً، أسرعي فعلاً!» وفي النهاية خرجوا كلُّهم خارجاً وأقفل السيِّد سمُّور الباب (قائلاً: «هذا سيعوِّقها قليلاً!»)، فانطلقوا حاملين زوّاداتهم على أكتافهم.

كان الثلج قد توقَّف، والقمر قد طلع، حين انطلقوا في رحلتهم. وساروا في صف واحد: السمور أوّلاً، ثمَّ لوسي، ثمَّ بطرس، ثمَّ سوزان، وآخِرَ الكلِّ السمُّورة. وتقدَّمهم

السيّد سمُّور على السدّ، ومنه إلى الضفّة اليُمنى من النهر، ثمّ على شِبه ممرّ وَعِر جدًّا بين الشجر ينحدر بمحاذاة ضفّة النهر تماماً. وارتفعت حافتا الوادي فوق رؤوسهم عاليتين جدًّا، وضوءُ القمر يترامى عليهما، فيما قال السمُّور: «لِنبقَ في الأسفل هُنا بقدْر الإمكان. فهي ستُضطرّ إلى البقاء فوقُ، لأنّه لا يُمكن إنزال المزلجة إلى هنا!»

وكان يمكن أن يكون ذلك المنظر فُرجة حلوة لو نظرتَ إليه من خلال نافذة وأنت قاعد على كُرسيّ مريح ذي ذراعَين؛ حتى في حالتهم تلك بالذات، أعجب المنظر لوسي في البداية. ولكنّ فيما راحوا يمشون ويمشون ويمشون، وفيما أخذت لوسي تشعر بأن الكيس الذي تحمله يزداد ثقلاً، بدأت تتساءل كيف يمكنها أن تصمد. وكفّت عن التطلّع إلى اللمعان الباهر المنبعث من النهر المتجمّد بشلّالاته الجليديّة، وإلى الكُتَل البيضاء المكوّمة على رؤوس الأشجار، وإلى القمر الكامل المتوهج والنجوم التي لا تُعَدّ، إذ لم تعُد تقدر إلا على مراقبة أرجُل السمُّور القصيرة الصغيرة وهي تخبط قدّامها في الثلج خبطاً متواصلاً وكأنّها لن تتوقّف عن الحركة أبداً.

ثمّ اختفى القمر، وعاد الثلج يتساقط من جديد. وأخيراً أرهق التعب لوسي حتّى كادت تمشي وهي نائمة. وفجأةً تبيّن لها أنّ السيّد سمُّوراً انعطف مبتعداً عن ضفّة النهر نحو اليمين، وأخذ يتقدّمهم صعوداً على التلّ إلى داخل أكثف دغل هناك. ثمّ لمّا استيقظت تماماً وجدت

السيّد سمُّورا يتوارى داخل نقرة صغيرة في الضفّة كانت مختفية تقريباً تحت الشُجيرات الكثيفة، بحيث لا تراها قبل أن تصل إلى أعلاها تماماً. وبالحقيقة أنّها عندما أدركت ما كان يجري لم ترَ إلّا ذيله القصير العريض.

وفي الحال انحنت لوسي وزحفت داخلةً وراءه. ثمّ سمعت وراءها أصوات خربشة ولُهاث ونَفث، ولم تمضِ هُنيهةٌ إلّا كان الخمسة قد صاروا في الداخل.

ثمّ سُمِع صوت بطرس يقول: «أيُّ مكانٍ هذا يا تُرى؟» وقد بدا تَعِباً وشاحباً وسط الظلام. (أرجو أن تتصوّر ما أعنيه بقولي عن الصوت إنّه بدا شاحباً.)

وقال السيّد سمُّور: «هذا مخبأ قديم للسمامير لأوقات الخطر، وهو سرٌّ عظيم. ليس مكاناً لائقاً جدًّا، ولكنّ علينا أن ننام بضع ساعات!»

ثمّ قالت السمُّورة: «لو لم تضطربوا وترتبكوا جدًّا عندما انطلقنا، لكنتُ جلبتُ بعض المخدّات».

لم يكن ذلك كهفاً جميلاً مثل كهف السيّد طمنوس، كما فكّرت لوسي، بل مجرّد حُفرة في الأرض، لكنّها ناشفة ونافعة. وكانت النُقرة صغيرة جدًّا، حتّى إنّهم عندما استلقَوا كلُّهم كانوا حُزمةً واحدةً من الثياب، الأمر الذي جعلهم يشعرون بالدفء والراحة تماماً، بعدما دفّأهم مشوارهم الطويل، فكنكنوا. ويا ليت أرضيّة الكهف كانت أنعم قليلاً! ثمّ أدارت عليهم السيّدة سمُّورة في العتمة قنّينة صغيرة ارتشف كلٌّ منهم شيئاً منها. ومَن

وأخيراً وصلوا جميعاً إلى أعلى الوادي، ورأوا منظراً عجباً.

كان هنالك مزلجة، وكان هنالك غُزلان عُلِّقت على سيورها أجراس. غير أنّها كانت أكبر بكثير من غزالَي الساحرة، ولم تكن غزلاناً بيضاً بل بُنّيّة. وعلى المزلجة قاعداً شخصٌ عرفوه كُلُّهم حالما وقعت أعيُنهم عليه. كان رجلاً ضخم البُنية، لابساً روباً أحمر قانياً برّاقاً جدّاً ذا غطاء للرأس مبطّن بالفرو، وله لحية بيضاء تتدلّى على صدره كشلّال مُزبِد. وقد عرفه كلُّ واحدٍ منهم، لأنّك وإنْ كنت ترى أشخاصاً من نوعه في نارنيا فقط فأنت تُشاهد صُوَراً لهم وتسمع أحاديث عنهم حتى في عالمنا، أي العالم الواقع خارج باب الخزانة إلى جهتنا نحن. ولكنّك إذا رأيتهم في نارنيا فعلاً تُشاهد منظراً مختلفاً بالأحرى. فإنّ بعضاً من صُوَر بابا نُويل في عالمنا تُظهره بمنظر مُضحِك وسخيف فقط. أمّا الآن، وقد وقف الأولاد ينظرون إليه فعلاً، فلم يجدوه يشبه تلك الصور تماماً. فإنّه كان كبيراً ومسروراً وحقيقياً إلى أقصى الحدود، حتّى صمتوا كلّهم في حضرته تماماً. لقد شعروا بمُنتهى الغبطة والبهجة، ولكنّهم شعروا بالرهبة والهيبة أيضاً.

ثُمّ قال: «ها قد جئتُ أخيراً. لقد عوّقتْني طويلاً، ولكنّي وصلتُ أخيراً. إنّ أصلان يتقدّم نحونا، وسحر الساحرة يضعف!»

أحسّت لوسي بموجة عارمة من البهجة التي لا تجتاح كيانك إلّا إذا كنت تشعر بالرهبة وهادئاً.

وقال بابا نُويل: «والآن، إليكم هداياكم. لكِ، يا سيّدة سمُّورة، آلة خياطة جديدة وأفضل من التي لديكِ. وسأُنزِلها في بيتك على طريقي».

فقالت السمُّورة وهي تُحيّيه بانحناءة مهذّبة: «عفوك، يا سيّدي! إنّه مُقفَل».

فأجاب بابا نُويل: «لا تهمُّني أقفال الأبواب ومزاليجُها! أمّا أنت، يا سيّد سمُّور، فعندما تصل إلى البيت تجد سدَّك جاهزاً ومُصلَحاً، وقد مُنِع كلُّ تسرُّبٍ أو نشّ فيه، ورُكّبت فيه بوّابة جديدة للماء».

وقد سُرَّ السيّد سمُّور للغاية حتّى فتح فمه على وسعه، وتبيّن له أنّه لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة.

ثمّ قال بابا نُويل: «يا بُطرس، ابنَ آدم!»

فقال بطرس: «ها أنا ذا، يا سيّدي».

وسمع الجواب: «إليك هديّتك. وهي عُدّة، لا لعبة. وربّما حان وقت استخدامها. فأحسِن استعمالها والحفاظ عليها!» وحين قال هذا، ناول بطرس ترساً وسيفاً. كان الترس بلون الفضّة وعليه نقشُ أسد أحمر يثب رافعاً يديه، حُمرته متوهّجة كحبّة فريز ناضجة تماماً لحظةَ قطفها. أما مقبض السيف فكان من الذهب، وله غِمد وحزام وكلُّ ما يلزم، وكان حجمه ووزنه مُناسِبَين تماماً لبطرس بحيث يسهل عليه استخدامه. وقد ظلّ بطرس صامتاً ومتهيّباً

كان يتناول من ذلك الشراب كان يسعل ويبقبق قليلاً ويشعر بلذعة في حنجرته، لكنّه كان يشعر بالدفء اللذيذ بعد البلع. وهكذا غطغط النوم عليهم جميعاً في الحال.

خُيِّل إلى لوسي أنّ دقيقةً واحدة فقط قد مرّت (رغم انقضاء ساعات وساعات)، لّما استيقظت وهي تشعر بشيء من البرد وبكثير من التيبُّس المزعج، وتفكّر بحاجتها الماسّة إلى حمّامٍ ساخن. ثم أحسّت شوارب طويلة تُدغدغ خدَّها، ولاح لها ضوء النهار البارد داخلاً من فتحة الكهف؛ لكنّها بعد ذلك حالاً استيقظت تماماً بالفعل، كما استيقظ الآخرون كلُّهم. وبالحقيقة كانوا جميعاً قد قعدوا فاغِرين أفواههم وفاتحين أعيُنهم يتسمّعون لصوتٍ كان هو بالذات الصوت الذي طالما فكّروا فيه (وتصوّروا أحياناً أنهم سمعوه) في أثناء مشوارهم البارحة. فقد كان صوت أجراسٍ تُجلجِل!

خرج السيِّد سمُّور من الكهف كالسهم لحظةَ سماعه الصوت. ولعلّك تُفكّر، مثلما فكّرت لوسي حيناً، أنّ القيام بذلك غباوة بالغة! إلّا أنّه كان بالحقيقة تصرُّفاً منطقيًا وعاقلاً جداً. فقد كان يعرف أنّه يستطيع أن يتسلّق إلى أعلى ضفّة النهر بين العُلّيق والشُجيرات دون أن يراه أحد، وقد رغب جداً أن يرى الطريق الذي سلكته مزلجة الساحرة. أمّا الباقون فقعدوا كلُّهم في الكهف، ينتظرون ويتساءلون. وبعد انتظار دام نحو خمس دقائق، سمعوا شيئاً روّعهم ترويعاً شديداً. فقد سمعوا أصواتاً. وفكّرت

لوسي: «آه، لقد رأته. لقد وقع بيدها!» ولشدّ ما دُهشوا لّما سمعوا بعد قليلٍ صوت السيِّد سمُّور يُناديهم من خارج الكهف تماماً. وكان يصيح:

«كلُّ شيء بخير. اخرجي يا ستُّ سمُّورة. أُخرجوا يا ابن آدم ويا بنتي حوّاء. كلُّ شيء بخير! ليس هذا هي!»

طبعاً، كانت عبارات السمُّور مضطربة وضعيفة لُغوياً. ولكنْ هكذا تتكلّم السمامير عندما تتحمّس... أعني في نارْنيا، لأنّه في عالمنا هذا لا تنطق السمامير بحرفٍ واحد عادةً!

وهكذا خرجت السمُّورة والأولاد من الكهف على وجه السرعة، وأعيُنهم تطرف في ضوء النهار وقد غطّاهم التراب من كلّ ناحية، ظاهرين بمظهر غير مُرتَّب لأنّهم لم يغسلوا وجوههم ولا مشّطوا شعورهم، والنعاس ما زال مسيطراً على عيونهم، ورائحة النوم الكريهة تفوح منهم.

وصاح السيِّد سمُّور وهو يكاد يرقص من البهجة: «تعالَوا! تعالَوا انظروا! هذه هزيمة عظيمة للساحرة! يبدو كأنّ سُلطتها بدأت تنهار فعلاً!»

فسأله بطرس لاهثاً: «ماذا تقصد، سيِّد سمُّور؟» فيما أخذوا يتسلّقون جميعاً ضفّة الوادي الشديدة الانحدار.

أجاب السمُّور: «أمَا قلتُ لكم إنّها قد جعلت الدُنيا هنا شتاءً دائماً بلا عيد ميلاد أبداً؟ أمَا قلتُ لكم؟ حسناً، ما عليكم إلّا أن تأتوا وتنظروا!»

عند استلامه هديّته هذه، إذ شعر بأنّها نوعٌ جِدّيّ جداً من الهدايا.

ثم قال بابا نويل: «يا سوزان، ابنة حوّاء، هذه لكِ!» وناولها قوساً وجعبة مملوءة سهاماً وبوقاً صغيراً من عاج، قائلاً: «عليكِ أن تستعملي القوس عند الحاجة القصوى فقط، لأنّي لا أريد منكِ أن تحاربي في المعركة. وهي قوسٌ لا تُخطىء الهدف بسهولة. وعندما تضعين طرف هذا البوق في فمك وتنفخين فيه، فحيثُما كُنتِ أعتقدُ أنّ نوعاً من المساعدة يصلك حتماً».

وآخِر الكُلّ قال: «يا لوسي، ابنة حوّاء»، فتقدّمت لوسي. فأعطاها قِنّينة صغيرة بدت كأنّها من زجاج (ولكنّ الناس بعد ذلك قالوا إنّها مصنوعة من الماس)، وخنجراً صغيراً. وقال: «في هذه القِنّينة شراب مُنعِش مصنوع من عصير إحدى زهرات النار الطالعة في جبال الشمس. فإذا أصابكِ أنتِ - أو أحد أصدقائك - أذىً ما، فإنّ بضع نُقَط من هذا الشراب تردُّ العافية. أمّا الخنجر فللدفاع عن نفسك عند الضرورة القصوى. فأنتِ أيضاً يجب ألّا تخوضي المعركة».

فقالت لوسي: «لماذا يا سيّد؟ أعتقد - لا ادري - ولكنْ أعتقد أنّه يمكنني أن أكون شُجاعة كفاية!»

فقال: «ليس هذا لُبُّ الموضوع. ولكنّ المعارك بشعة حين تُقاتِل النساء فيها. والآن (وهنا بدا فجأةً أقلّ جديّة) ها هُنا شيءٌ لكم جميعاً لأجل اللحظة الحاضرة!» ثمّ

أخرج (من الكيس الكبير على ظهره، كما أعتقد، ولكنْ لم يرَه أحدٌ وهو يفعل ذلك) صينيّةً كبيرة عليها خمسة فناجين وصحون، وطاسة من قِطع السُكّر، وإبريق من القشدة، وغلّاية شاي كبيرة جداً تطشّ وتنشّ من السخونة. وبعدئذ هتف قائلاً: «ميلاداً مجيداً! عاش الملك الحقيقيّ!» ثمّ ضرب بسوطه، واختفى عن الأنظار هو وغزلانه ومزلجته وكل شيء، قبل أن يتنبّه أيٌّ منهم إلى انطلاقها مبتعدةً عنهم.

وكان بطرس قد سحب سيفه توّاً من غِمده ليراه السيّد سمّور، حين قالت السيّدة سمّورة:

«هيّا الآن، هيّا الآن! لا تقفا هُناك تتكلّمان حتّى يبرد الشاي! هذا ما يعمله الرجال. تعاليا ساعِداني على إنزال الصينيّة، فنتناول الفَطور. من رحمة الله أني تذكّرتُ إحضار سكّين الخبز!»

وهكذا عادوا نزولاً على الضفّة المنحدرة، ورجعوا إلى الكهف. فقطع السيّد سمّور شيئاً من الخبز واللحم المقدّد، وعمل شطائر. وصبّت السيّدة سمّورة الشاي، فأكل الجميع هنيئاً وشربوا مريئاً. إنّما قبل وقتٍ طويل من انتهائهم من الاستمتاع بفطورهم، قال السيّد سمّور: «حان وقت التحرّك الآن!»

الفصل الحادي عشر

أصلان يقترب

كان إدمون في ذلك الحين يعاني الأمرّين ومحبَطاً للغاية. فلمّا ذهب القزم لتجهيز المزلجة، توقّع إدمون أن تُعامِله الساحرة معاملة طيّبة، كما عاملته في لقائهما الأخير. إلّا أنّها لم تقُل كلمة واحدة. وعندما استجمع إدمون أخيراً شجاعته وقال: «رجاءً، يا صاحبة الجلالة، هل لي بشيءٍ من راحة الحلقوم؟ فأنتِ... أنتِ... قُلتِ...» أجابته: «اخرس، يا أحمق!» ثمّ بدا أنّها غيّرت رأيها، إذ قالت وكأنّها تحدّث نفسها: «إنّما، رغم كلّ شيء، لا نفع في أن يُغمى على هذا الولد النقّاق في الطريق»، وصفّقت بيديها مرّة أخرى، فحضر قزم آخر، فقالت له:

«هاتِ طعاماً وشراباً لهذا المخلوق البشريّ!»

وذهب القزم ثمّ عاد حالاً، حاملاً طاسة حديدية فيها بعض الماء وصحناً حديدياً فيه قطعة كبيرة من الخبز اليابس. وكشّر عن أسنانه بطريقة مُقرِفة، فيما وضع الطاسة والصحن على الأرض قرب إدمون، قائلاً:

«راحة حلقوم للأمير الصغير. ها! ها! ها!»

فقال إدمون عابساً:

«أبعد هذا من هُنا. لا أُريد خبزاً يابساً».

ولكنّ الساحرة التفتت إليه وعلى وجهها ملامحُ رهيبة جعلته يعتذر ويبدأ بتناول الخبز قليلاً قليلاً، رُغم أنّه كان فاسِداً وكريهاً بحيث صعب عليه جدًّا أن يبتلعه.

وقالت الساحرة: «لعلّك تستطيبه تماماً قبل أن تذوق الخبز مرّة أُخرى!»

وبينما كان ما يزال يلوك ويبتلع، رجع القزم الأوّل معلناً أنّ المزلجة جاهزة. فقامت الساحرة البيضاء وخرجت، آمِرةً إدمون أن يذهب معها. وكان الثلج قد عاد يتساقط حين خرجا إلى ساحة الدار، لكنّها لم تكترث بذلك، وأجبرت إدمون أن يقعد إلى جنبها على المزلجة. ولكنْ قبل الانطلاق نادت غدّاراً فجاء مُهروِلاً ككلب كبير إلى جانب المزلجة. فقالت له: «خُذ معك أسرع ذئابك واذهب حالاً إلى بيت السمُّورَين، واقتل كلّ حيّ تجده هناك. وإن كانوا قد ذهبوا، فتوجّه بكلّ سرعة إلى طاولة الحجر. لكنْ

حذارِ أن يراك أحد. ثمَّ انتظرني هناك متخفّياً. فعليَّ في هذه الأثناء أن أقطع مسافة طويلة غرباً حتّى أجد مكاناً أقدر فيه أن أسوق المزلجة عبر النهر. ويمكن أن تلحق بهؤلاء البشريّين قبل وصولهم إلى طاولة الحجر. وستعرف ما تفعل بهم إذا وجدتهم هناك!»

فدمدم الذئب غدّار: «سمعاً وطاعةً أيّتها الملكة!» وانطلق حالاً كالسهم وسط الثلج والظلام، بسُرعة حصانٍ يعدو. ولم تمضِ دقائق قليلة حتّى كان قد دعا ذئباً آخر وتوجّه معه إلى السدّ، حيث أخذا يتشمّمان بيت السمُّورين. لكنّهما طبعاً وجداه فارغاً. ولو ظلّت تلك الليلة صافية لواجه السمُّوران والأولاد مصيراً رهيباً، إذ يكون في وسع الذئبين عندئذٍ أن يتتبّعا آثارهم، ومن المؤكّد أنهما كانا سيدركانهم قبل وصولهم إلى الكهف. أمّا الآن، وقد عاد الثلج يتساقط، فقد ضاعت رائحتهم في البرد، بل إنّ آثار أقدامهم أيضاً تغطّت.

في تلك الأثناء ألهب القزم الغزالين بالسوط، وانطلقت المزلجة بالساحرة وإدمون من تحت القوس، خارجةً إلى قلب الظلام والصقيع. وكانت تلك رحلة مروّعة لإدمون، إذ لم يكن يرتدي معطفاً. فقبل أن يمضي ربع ساعة على انطلاقهما، غطّاه الثلج من الأمام، وكفّ عن محاولة نفضه عنه، لأنّه بالسرعة التي كان يفعل بها ذلك كانت كميّة جديدة أكبر تتجمّع عليه، وقد أنهكه التعب. وسرعان ما تبلّل حتّى جلده. وما كان أكثر شقاءه! فلم يبدُ له الآن أنّ

الساحرة تقصد أن تجعله ملكاً. ثمّ إنّ كلّ ما قاله ليُقنع نفسه بأنّها طيّبة ولطيفة، وبأنّ الوقوف في صفّها هو الخيار الصحيح، بدا له سخيفاً وتافهاً الآن. وكان مستعداً أن يدفع أيّ ثمن لمقابلة الآخرين – حتّى بطرس! – في ذلك الحين. أمّا الطريقة الوحيدة لتعزية نفسه الآن فكانت أن يحاول حسبان كلّ ما يجري حلماً، وأنّه قد يستيقظ في أيّة لحظة. وإذ سارت بهما المزلجة، ساعةً بعد ساعة، بدا له ذلك مثل الحلم فعلاً.

دامت هذه الحال السيّئة أطول ممّا يمكنني أن أصف، ولو كتبت عنها صفحاتٍ كثيرة العدد. ولكنّي سأتخطّى هذا إلى الوقت الذي فيه توقّف تساقط الثلج، وقد طلع الصباح، وصارت المزلجة تسير في ضوء النهار. ومع ذلك دام سيرها طويلاً، بغير صوتٍ سوى هفيف الثلج المستمرّ وصرير طقم الغزالين. ثمّ أخيراً قالت الساحرة: «ماذا عندنا هُنا؟ قِف!» فأوقف القزم المزلجة.

كم تمنّى إدمون لو تقول شيئاً عن الفطور! غير أنّها توقّفت لسببٍ آخر. فعلى مسافة غير بعيدة، عند أسفل شجرة، قعدت مجموعة صغيرة في حفلة أُنس ومرح: سنجاب وزوجته وأولادهما، وساطيران وقزم، وثعلب مُسِنّ كبير، على مقاعد حول طاولة. ولم يقدر إدمون أن يرى تماماً ماذا يأكلون، إلّا أنّ ذلك كان طيّب الرائحة، وبدا أنّ هنالك زينة من نبات البهشيّة* المُرصّع

* نبات جميل زهرُهُ يميل للبياض.



بحبوبه الحُمر اللمّاعة، وخُيِّل إليه أنّه رأى ما يُشبه حلوى الخوخ. ولحظةَ توقّفت المزلجة، كان الثعلب، الذي كان من الواضح أنّه أكبر الحاضرين سنّاً، قد وقف على رجليه، حاملاً كأساً بمخلبه الأيمن، وكأنّه يهمّ بأن يقول شيئاً. ولكنّ لمّا رأت المجموعة كلّها المزلجة تتوقّف، ومَن كان فيها، فارق الفرح والمرح وجوههم. فقد توقّف السنجاب الأب عن الأكل وهو رافعٌ شوكته بين الصحن وفمه، فيما توقّف أحد الساطيرَين وشوكتُه في فمه فعلاً، وزعق السناجب الصغار رُعباً.

سألت الملكة الساحرة: «ما معنى هذا؟» فلم يكُن جواب.

ثُمّ قالت أيضاً: «تكلّموا يا حشرات! أم تُريدون أن يردّ قزمي ألسنتكم بسوطه؟ ما معنى كلّ هذا النهم، هذا

الهذر، هذا التمتّع؟ مِن أين جئتم بهذه كلّها؟»

فقال الثعلب: «عفواً، يا صاحبة الجلالة! لقد أُعطيَت لنا هدايا. وإن كان لي أن أستجرىء فأشرب نخب صحّة جلالتك الجيّدة...»

سألتِ الساحرة: «مَن أعطاكم إيّاها؟»

فقال الثعلب متلعثِماً متمتماً: «بـ بـ بـ بابا نُويل».

فقالت الساحرة بصوتٍ راعد: «ماذا؟» قافزةً عن المزلجة ومقتربةً إلى الحيوانات المذعورة بضع خطوات واسعة، ثمّ أضافت: «لم يحضُر إلى هُنا! لا يمكن أن يكون قد جاء إلى هنا! كيف تستجرئون... لكنْ لا. قُل لي إنّك كذبت، فأُسامحك الآن».

في تلك اللحظة فقد أحد السناجب الصغار صوابه تماماً، وزعق وهو يضرب الطاولة بملعقته الصغيرة: «بَلى! لقد جاء. بَلى! لقد جاء».

ورأى إدمون الساحرة تعضُّ شفتيها بحيث ظهرت على ذقنها الأبيض نقطةُ دم. ثمّ رفعت عصاها.

فصاح إدمون: «أوه، لا تفعلي هذا، لا تفعلي، رجاءً لا تفعلي!» ولكنْ بينما هو يصرخ، حرّكت عصاها، وفي الحال حيث كانت الحفلة المرحة جارية لم يعُدْ موجوداً إلّا تماثيل مخلوقات (أحدُها رافع شوكته الحجريّة بين صحنه وفمه الحجريّ) قاعدة حول طاولة حجريّة عليها صحون حجريّة وحلوى خوخ من حجر.

ثمّ صفعت الساحرة إدمون صفعةً مدوّخةً على



خدَّه، وقالت وهي تركب في المزلجة من جديد: «أمّا أنت، فليُعلِّمْك هذا أن تطلب العطف على الجواسيس والخَوَنة! سُق يا قَزَم». وأوّلَ مرّة في هذه القصّة، شعر إدمون بالأسى على شخصٍ عداه هو. فقد بدا أمراً مُثيراً للشفقة كثيراً أن يُفكّر في تلك التماثيل الحجريّة الصغيرة وهي قاعدة هُناك طوال النهارات الساكنة وطوال الليالي المُظلِمة، سنةً بعد سنة، حتى تطلع عليها الطحالب وتتفتّت وجوهُها أخيراً.

والآن عادت المزلجة تتحرّك من جديد بسرعة وثبات. وما لبث إدمون أنْ لاحظ أنّ الثلج الذي كان يُطرطِش على وجوههم وهم مندفعون وسطه قد صار أكثر رطوبة ممّا كان طيلة البارحة. ولاحظ في الوقت نفسه أنّه يشعر بمقدارٍ من البرد أقلّ بكثير. كذلك كان الضباب يتزايد. وبالحقيقة، كان الضباب يتكثّف كلَّ دقيقة فيصير

الطقس أكثر دفئاً. وما عادت المزلجة تجري تقريباً جرياً حسناً كحالها المعتادة حتّى الآن. وظنّ إدمون في البداية أنّ سبب ذلك هو تعب الغزالَين، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ هذا لا يمكن أن يكون السبب الحقيقيّ. وأخذت المزلجة تهتزّ وتنزلق وترتجّ كما لو كانت تصطدم بالحجارة. ومهما ألهب القزم الغزالَين المسكينَين بالسوط، ظلّت المزلجة تتباطأ أكثر فأكثر. كذلك أيضاً بدا أنّ حوالَيهم ضجّة غريبة، ولكنّ ضجيج جريان المزلجة وارتجاجها وصراخ القزم على الغزالَين منعا إدمون من سماع حقيقة تلك الضجّة، حتّى علقت المزلجة فجأةً، وجمدت في مكانها بحيث لم تعُد تتقدّم مُطلقاً. ولمّا حدث هذا، سادت لحظة صمت، وفي ذلك الصمت قدر إدمون أخيراً أن يُصغي جيّداً إلى الضجّة الأُخرى. فإذا بها صوت سقسقة وخرير غريب وعذب، إلّا أنّه لم يكن أمراً مستغرباً تماماً، لأنّ إدمون كان قد سمعه قبلاً، وتمنّى فقط لو يتذكّر أين! ثُمّ تذكّر فجأةً. فقد كانت الضجّة خرير ماءٍ جارٍ. وقد كان حواليهم، إنّما بعيداً عن مجال النظر، سواقٍ وجداول تُخرخِر وتثرثر وتُبقبِق وتُرشّش، بل أيضاً (في البعيد) تهدر هديراً. وقفز قلبه في صدره قفزة كبيرة (مع أنّه لم يكَد يعرف السبب)، حين تبيّنَ له أن الصقيع قد زال. وعلى مسافة أقرب إليه بكثير، تساقطت قطرات الماء من أغصان الشجر كلّها

نقطة نقطة، مُحدِثةً صوتَها المألوف. ثمَّ لمّا نظر إلى إحدى الأشجار، رأى حِملاً ثقيلاً من الثلج ينزلق عنها، وأوّلَ مرّة منذ دخوله نارْنيا رأى شجرة شربين بلونها الأخضر الداكن. ولكنْ لم يتّسِعِ الوقت لمزيد من الاستماع أو التفرُّج، إذ قالت الساحرة:

«لا تقعد مُحدِّقاً هكذا، يا غبيّ! انزل وساعدْ!»

وبالطبع كان على إدمون أن يُطيع. فترجَّل إلى الثلج، وكان قد أصبح شبه ذائب الآن، وبدأ يساعد القزم على إخراج المزلجة من حفرة الوحل التي سقطت فيها، حتّى أخرجاها أخيراً. واستطاع القزم، بفرط قسوته على الغزالين، أن يجعل المزلجة تتحرّك من جديد، فقطعت مسافة قصيرة. ثمّ أخذ الثلج يذوب فعلاً بغزارة، وبدأت تظهر رُقَع من العشب الأخضر في كلّ اتّجاه. وما لم تكن قد نظرتَ إلى عالَمٍ من الثلج مدّةً طويلة كتلك التي قضاها إدمون وهو ينظر إلى الثلج، فإنه يصعُب أن تقدر أن تتصوَّر أيّة راحة تأتيكَ بها تلك الرُّقَع الخضراء بعد البياض الذي لا ينتهي.

ثمَّ توقَّفت المزلجة من جديد، فقال القزم: «لا نفع، يا صاحبة الجلالة. لا يمكننا أن نسوق المزلجة فيما الثلج يذوب سريعاً!»

فقالت الساحرة: «إذاً، يجب أن نمشي مشياً».

ودمدم القزم: «لن نلحقهم أبداً ونحن نمشي، بعدما سبقونا كثيراً».

فقالت الساحرة: «أَمُستشاري أنت أم عبدي؟ اعمل ما أقول لك: اربط يدي المخلوق البشريّ وراء ظهره وأمسِكْ بطرف الحبل. وأحضِر سوطك. واقطع سيور طقم الغزالَين، فهما يعرفان الطريق إلى البيت وحدهما».

فأطاع القزم، وفي غضون بضع دقائق وجد إدمون نفسه مُضطرًا إلى المشي بأسرع ما يمكنه ويداه مربوطتان وراء ظهره. وظلّ ينزلق على الثلج الذائب والوحل والعشب الرطب، وكلّما انزلق يلعنه القزم أو يضربه بالسوط أحياناً.

أما الساحرة فمشت وراء القزم، وظلّت تقول:

«بسرعة أكثر! بسُرعة أكثر!»

كلّ لحظة، كانت رُقَع الاخضرار تكبر، ورُقَع الثلج تصغر. وكلّ لحظة كان مزيد من الأشجار يخلع عنه





ثوب الثلج. وسرعان ما حلّ محل الأشكال البيضاء، أينما تطلّعتَ، اخضرارُ الشربين الداكن، أو الأغصان الشائكة السوداء العارية على أشجار السنديان والزان والدردار. ثمّ تحوّل الضباب الرقيق من اللون الأبيض إلى اللون الذهبي، وما لبث أن انقشع تماماً. وترامت أشعة الشمس اللذيذة على أرض الغابة، فبات يمكنك أن ترى فوق رأسك الفضاءَ الأزرق من بين أعالي الشجر.

وبعد قليلٍ أخذت تحدث أُمورٌ أعجب. فبعد الانعطاف فجأةً إلى فسحة من شجر القُضبان الفضّيّ، رأى إدمون الأرض في كلّ اتّجاه مُغطّاة بأزهار البابونج الصغيرة الصفراء. وأخذ خرير المياه يتعالى. وفي الحال عبروا ساقية، وراءها رأوا زهور اللبن طالعة.

وإذ رأى القزم إدمون يُدير رأسه ليتطلّع إليها، شدّ الحبل شدّةً خبيثة، وقال

لإدمون: «اهتمّ بشؤونك الخاصّة!»

ولكنّ ذلك طبعاً لم يمنع إدمون من النظر. وبعد خمس دقائق فقط، رأى اثنتي عشرة زعفرانة طالعة حول أسفل شجرة عتيقة: ذهبيّة وأرجوانية وبيضاء. ثمّ سمع صوتاً أعذبَ بعدُ من خرير الماء. فبجانب الطريق الذي كانوا يسيرون فيه، زقزق عصفورٌ فجأةً على غُصن شجرة. ومَن مسافة أبعد قليلاً جاوبة عصفور آخر مسقسقاً. بعدئذٍ... وكأنّما كانت هذه إشارة، تعالى التغريد والزقزقة من كلّ ناحية، ثمّ كانت لحظة غناء كامل. وفي ظرف خمس دقائق تماوجت في الغابة كلّها أصداءُ أنغام الطيور العذبة. وأينما نظر إدمون، رأى طيوراً تحطّ على الأغصان، أو تطير فوق رأسه، أو تطارد بعضها بعضاً، أو تخوض جدالاتها اليسيرة، أوتنظّف ريشها بمناقيرها.

وقالت الساحرة أيضاً: «بسرعة أكثر! بسرعة أكثر!»

بعدئذٍ انقشع الضباب كلّه. وصارت السماء أكثر فأكثر زُرقة، وكانت غيوم بيض تعبرها بسرعة من حين إلى حين. وكان في الفُرَج الأوسع كثير من زهر الربيع. وهبّت نسمة رقيقة نثرت قطراتٍ من الرطوبة عن الأغصان المتمايلة، وحملت روائح طيّبة مُنعشة إلى أُنوف السائرين. وأخذت الحياة النابضة تدبُّ في الأشجار. فتغطّى شجر الزان والأرزيّ بالأخضر، والقوطيسوس بالذهبيّ. وسرعان ما اكتسى شجر الزان بورقه الرقيق الشفّاف. وإذ مشى

السائرون تحته، صار الضوء أيضاً أخضر. وطنَّت نحلةً، عابرةً أمامهم.

فتوقَّف القزم فجأة وقال: «هذا ليس مجرَّد ذوبان للثلج! هذا هو الربيع! فماذا نعمل؟ أقول لكِ إنَّ شتاءَك قد أزيل! وهذا من عمل أصلان!»

فقالت الساحرة: «إذا ذكر أيُّ واحد منكما هذا الاسم ثانيةً، فسيُقتل في الحال!»

الفصل الثاني عشر

معركة بطرس الأولى

بينما تبادل القزم والساحرة البيضاء الحديث، كان السمُّوران والأولاد على بعد كيلومترات يمشون ساعةً بعد ساعة في ما بدا لهم حلماً لذيذاً. ومن وقتٍ طويل تركوا المعاطف لعدم احتياجهم إليها. حتّى إنّهم الآن توقّفوا عن قول بعضهم لبعض: «انظروا! هناك عصفور رفراف أحمر»، أو: «تطلّعوا، إنّها نبتة الأجراس الزرقاء الفتّانة!» أو: «تُرى، ما هذه الرائحة الطيّبة؟» أو: «أصغوا إلى تلك السُّمنة المغرِّدة!» فقد تابعوا سيرهم صامتين يتذوَّقون كلَّ جمال الطبيعة، مجتازين من رُقَع أدفأتها الشمس إلى أجمات باردة خضراء، ليخرجوا من جديدٍ إلى منفرجات واسعة كثيرة الطحالب، حيث أشجار الدردار العالية تمدُّ فوق الرؤوس سطحاً كبيراً من الأغصان والأوراق، ثمَّ إلى قلب أجمات كثيفة من الكشمش المُزهِر وشجيرات الزعرور البرّيّ المتقاربة حيث كادت الرائحة الطيّبة تسحر عقولهم.

وقد دُهشوا كما دهش إدمون لمّا رأوا الشتاء يتلاشى،

والغابة كلّها تنتقل في بضع ساعات تقريباً من كانون الثاني إلى أيّار (من يناير إلى مايو). حتّى إنّهم لم يعرفوا يقيناً (كما عرفت الساحرة) أنّ هذا سيحدث حين يأتي أصلان إلى نارنيا. ولكنّ الجميع كانوا يعرفون أنّ سحورها هي التي أحدثت الشتاء الذي لا ينتهي. ولذلك فلمّا بدأ هذا الربيع العجيب عرفوا أنّ خللاً ما - بل خللاً رهيباً جدًّا - أصاب خُطط الساحرة. وبعدما سال الثلج الذائب مدّةً، أدركوا كلّهم أنّ الساحرة لن تعود تقدر أن تستعمل مزلجتها. ومن ثَمّ لم يعودوا يسرعون كثيراً، وأعطوا أنفسهم فتراتٍ من الراحة أكثر وأطول. كانوا قد تعبوا جدًّا بالطبع، ولكنّهم الآن لم يعودوا يشعرون بما أُسمّيه مرارة التعب، بل إنّما كانوا يمشون على مهل شاعرين بأنّهم في حلمٍ جميل للغاية، والسكينة تغمر نفوسهم، كما يشعر مَن يصل إلى نهاية نهار طويل قضاه في الهواء الطلق. وقد طلعت بثرةٌ في عقب إحدى قدمي سوزان.

وكانوا قد غادروا مجرى النهر الكبير منذ حين، إذ كان يجب على المرء أن ينعطف قليلاً نحو اليمين (أي قليلاً إلى جهة الجنوب) حتّى يصل إلى موقع طاولة الحجر. وحتّى لو لم يكن هذا خطّ سيرهم، لم يعُد ممكناً أن يظلّوا يسيرون في وادي النهر حالما بدأ الثلج يذوب، لأنّ ذوبان تلك الثلوج كلّها جعل النهر يفيض سريعاً - فيضاناً أصفر عجيباً هادراً وراعداً - حتّى صار طريقهم الذي أرادوا سلوكه تحت الماء.

ثمّ انحدرت الشمس وصار الضوء أشدّ احمراراً، فأصبحت الظلال أطول، وبدأت الزهور تُفكّر في الانطباق.

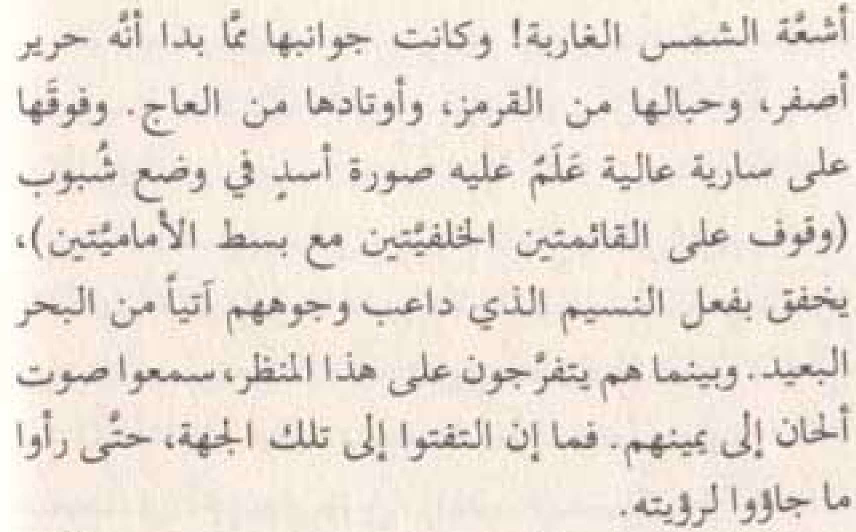
وقال السيّد سمّور: «بعد قليلٍ نصل!» ثم أخذ يتقدّمهم صعوداً وسط بعض طحالب الربيع العميقة جدًّا (وقد بدت مُريحةً تحت أقدامهم المُتعَبة) في مكانٍ لا يطلع فيه إلّا أشجار عالية متباعدة جدًّا. وقد جعلهم السير صعوداً، في آخر نهارٍ طويل، يلهثون وينفخون. وفي اللحظة التي كانت لوسي فيها تتساءل عن إمكانيّة وصولهم إلى الأعلى بغير استراحة طويلة، وصلوا فجأةً إلى الأعلى. وهاكَ ما رأوه:

وجدوا أنفسهم في فسحة خضراء مكشوفة يمكنك منها أن تنظر إلى الأسفل فترى الغابة منتشرة على مجال النظر في كلّ جهة، إلّا أمامك تماماً. فهناك، بعيداً نحو الشرق، ظهر شيء يتوهّج ويتموّج. وهمس بطرس لسوزان: «صدّقيني، إنّه البحر!» في وسط قمّة التلّة هذه المكشوفة كانت طاولة الحجر! وهي بلاطة كبيرة خشنة من الصخر الرماديّ، مرفوعة على أربعة أحجار منصوبة. وقد بدت قديمة جدًّا، وكان منقوشاً عليها كلّها أسطُر وأشكال غريبة لعلّها أحرُف لغة مجهولة، إذا نظرتَ إليها يتولّد فيك شعور غامض. أمّا تالي شيء رأوه فكان خيمة كبيرة منصوبة في جانب من جوانب تلك الفُسحة المكشوفة. وما كان أجملها من خيمة، خصوصاً بعدما ترامت عليها

أشعَّة الشمس الغاربة! وكانت جوانبها ممّا بدا أنّه حرير أصفر، وحبالها من القرمز، وأوتادها من العاج. وفوقَها على سارية عالية عَلَمٌ عليه صورة أسدٍ في وضع شُبوب (وقوف على القائمتين الخلفيَّتين مع بسط الأماميَّتين)، يخفق بفعل النسيم الذي داعب وجوههم آتياً من البحر البعيد. وبينما هم يتفرَّجون على هذا المنظر، سمعوا صوت ألحان إلى يمينهم. فما إن التفتوا إلى تلك الجهة، حتّى رأوا ما جاؤوا لرؤيته.

كان أصلان واقفاً وسط جمهرة من المخلوقات تحلَّقت حوله على شكل هلال. وكان هنالك نساء أشجار ونساء آبار (حوريّات غابات وحوريّات ماء كما كُنَّ يُسمَّين في عالمنا) بأيديهنَّ آلاتٌ موسيقية وتريّة. وعن هؤلاء النساء صدرت ألحانٌ عذبة. وكان هناك أيضاً أربعة كائنات ضخمة من نوع القنطور. أمّا الجزء الشبيه بالفرس منهم فكان كأحصنة المزارع الضخمة، فيما كان الجزء الشبيه بالبشر مثل العمالقة الأشدّاء لكنْ ذوي الجمال. وكان هنالك أيضاً كائن أحاديُّ القرن، وثورٌ له وجه إنسان، وبجعة، ونسر وكلبٌ كبير. وبقرب أصلان وقف فهدان، واحدٌ منهما يحمل تاجه، والآخر عَلَمه.

أمّا أصلان نفسه، فلمّا رآه السمّوران والأولاد لم يدروا ماذا يفعلون أو يقولون. فالذين لم يزوروا نارنيا قبلاً يعتقدون أحياناً أنَّ الكائن لا يمكن أن يكون طيّباً ومُرعباً في الوقت نفسه. وإن كان الأولاد قد اعتقدوا ذلك مرَّةً،



فإنَّ هذا الاعتقاد صُحِّح الآن. لأنَّهم لَمَّا حاولوا أن يتطلَّعوا إلى وجه أصلان، ما قدروا أن يلمحوا إلَّا اللُّبدة الذهبيَّة، والعينين الملوكيَّتين الواسعتين المهيبتين الآسِرَتين، وعندئذٍ أدركوا أنَّهم لا يقدرون أن يتطلَّعوا إليه، وأخذتهم الرعدة جميعاً.

وهمس السيِّد سمُّور: «هيَّا، تقدَّموا!»

فهمس بطرس: «لا، تقدَّم أنت أوَّلاً!»

فعاد السيِّد سمُّور وهمس من جديد: «لا، بنو آدم قبل الحيوانات».

وهمس بطرس: «سوزان، ما رأيُكِ؟ السيِّدات أوَّلاً!»

فهمست سوزان: «لا، فأنت الأكبر». وبالطبع، كلَّما استمرُّوا يفعلون هذا، زاد شعورهم بالحرج والارتباك. ثمَّ أدرك بطرس أخيراً أنَّ الأمر استقرَّ عليه. فسحب سيفه، ورفعه بالتحيَّة، وقال للآخرين على عجل: «هيَّا، شُدُّوا حيلكم!» ثمَّ تقدَّم إلى الأسد وقال:

«ها نحن جئنا، يا أصلان».

فقال أصلان: «أهلاً بك يا بطرسُ ابنَ آدم. أهلاً بكُما يا سوزان ولوسي ابنتَي حوَّاء. أهلاً بكما، يا سمُّور ويا سمُّورة!»

كان صوته عميقاً وغنيّاً، وبطريقةٍ ما بدَّد توتُّرَهم. فأحسُّوا الآن البهجة والسكينة، ولم يبدُ سيِّئاً منهم أن يقفوا هناك دون أن يقولوا كلمة واحدة.

ثمَّ سأل أصلان: «تُرى، أين الرابع؟»

فقال السيِّد سمُّور: «لقد حاول أن يخونهم وانضمَّ إلى الساحرة البيضاء، يا أصلان». ثمَّ دفع بطرس شيءٌ إلى أن يقول:

«كانت الغلطة غلطتي أنا، يا أصلان. لقد غضبتُ عليه، وأعتقد أنَّ ذلك سهَّل له سبيل الخطأ».

ولم يقُل أصلان شيئاً إمَّا ليعذر بطرس وإمَّا ليلومه، بل وقف ينظر إليه فقط بعينيه الواسعتين الثابتتين. وبدا لهم جميعاً أنْ ليس ما يُقال. ثُمَّ قالت لوسي:

«رجاءً، يا أصلان، أيُمكن أن تعمل شيئاً لإنقاذ إدمون؟»

فقال أصلان: «سأعمل كلَّ شيء. ولكنَّ الأمر قد يكون أصعب مِمَّا تعتقدين». ثمَّ عاد إلى الصمت حيناً. وحتَّى تلك اللحظة كانت لوسي ما تزال تُفكِّر كم بدا وجهه ملوكيًّا وقويًّا وهادئاً. أمَّا الآن فقد خطر في بالها أنَّه بدا حزيناً أيضاً. ولكنْ في الدقيقة التالية تغيَّرت ملامح وجهه تلك. فقد نفَّض لُبدتَه، وصفَّق مخلباً بمخلب (ففكَّرت لوسي: «كم تكون مخالبه مخيفة لو أنَّه لم يكُن يعرف أن يُنعِّمها!») ثمَّ قال: «وحتَّى ذلك الحين، ليتمَّ إعداد الوليمة، يا سيِّدات، خُذنَ ابنتَي حوَّاء هاتين إلى الخيمة وقُمنَ بخدمتهما هناك!»

ولَمَّا ذهبت البنتان، رفع أصلان مخلبه ووضعه على كتف بطرس، وقد كان ثقيلاً مع أنَّه مُنعَّم ومخمَلي، وقال: «تعال، يا ابن آدم، فأُريك من بعيدٍ القصر الذي فيه ستصير ملكاً».

فذهب بطرس، وسيفه ما يزال مجرَّداً في يده، بصحبة الأسد إلى حافة التلّ الشرقيّة. وهناك وقعت أعينُهما على مشهد جميل. فقد كانت الشمس تغيب وراء ظهرَيهما. ومعنى هذا أنّ كاملَ الريف المنبسط تحتهما وقع عليه نور الغروب: الغابات والتلال والأودية والجزء الأسفل من النهر الكبير متلوّياً كحيّة فضّيّة اللون. وما وراء هذه كلّها، على بعد كيلومترات، ظهر البحر وخلفَهُ الفضاء مملوءاً بغيومٍ أخذت تتحوّل إلى اللون الورديّ حالاً إذ انعكس ضوء الشمس عليها. ولكنْ حيث تلتقي أرض نارنيا البحر تماماً – بل بالحقيقة عند مصبّ النهر الكبير– بدا على إحدى التلّات الصغيرة شيءٌ متألّق. وقد كان يتألّق لأنّه قصر، وقد انعكس ضوء الشمس طبعاً على جميع النوافذ المقابلة لبطرس والغُروب؛ إلّا أنّ بطرس رآه مثل نجمة كبيرة مستقرّة على شاطئ البحر.

وقال أصلان: «ذلك، يا إنسان، هو كَيرپرافيل ذو العروش الأربعة التي على أحدها ستجلس ملكاً. وأنا أُريك إيّاه لأنّك الابن البِكر وستكون ملكاً أعلى على الباقين جميعاً».

ومرّةً أخرى لم يقُل بطرس شيئاً، لأنّه في تلك اللحظة خرق الصمت فجأةً صوتٌ غريب، كان يشبه نفخ بوق لكنْ أعلى وأحلى.

فقال أصلان لبطرس: «إنّه صوتُ بوقِ أُختك»، بصوت منخفض جدًّا حتّى يكاد أن يكون خرخرة هِرّ، إن

كنّا لا نقلّل من احترام الأسد إذا قلنا إنّه يُخرخِر.

ثمّ مضت لحظة وبطرس لا يفهم شيئاً. لكنّه ما لبث أن فهم لمّا رأى جميع المخلوقات الأخرى تنطلق إلى الأمام وسمع صوت أصلان قائلاً وهو يلوّح بمخلبه: «إلى الوراء! دعوا الأمير يُحرِز انتصاراته بنفسه». فاندفع راكضاً بأقصى سرعته نحو الخيمة. وهنالك رأى منظراً رهيباً.

كانت حوريّات الغابة وحوريّات الماء يتفرّقن في كلّ اتّجاه، ولوسي راكضة نحوه بأسرع ما يمكن أن تحملها رجلاها القصيرتان، ووجهها شاحب كالورق الأبيض. ثمّ رأى سوزان تندفع صوب شجرة وتقفز متمايلة لتتعلّق بأحد أغصانها، يلحقها وحشٌ رماديّ ضخم، حسبه بطرس دبًّا أوّل وهلة. ثمّ لاحظ أنّه يبدو كأنّه كلبُ ألزاسيّ، مع أنه كان أكبر بكثير جدًّا من أن يكون كلباً. ثمّ أدرك أنّه ذئب: ذئبٌ واقف على قائمتيه الخلفيّتين ومخلباه الأماميّان على جذع الشجرة وهو يُعضعِض ويهرّ ويطبِق فكيه، وقد قَفَّ شعر ظهره كلّه. وما قدرت سوزان أن تعلو أكثر من الغصن الكبير الثاني. فكانت إحدى رجليها تتدلّى بحيث لا تبعد عن الأنياب المُعضعِضه إلّا سنتيمتراتٍ قليلة. وتساءل بطرس لماذا لم تستطع سوزان أن تعلو أكثر، أو على الأقل أن تتمسّك تمسّكاً أشدّ؛ ثمّ تبيّن له أنّها يكاد يُغمى عليها، وأنّها إن أُغميَ عليها تسقط أرضاً.

لم يشعر بطرس بأيّة شجاعة. بل إنّه في الواقع شعر بدوخةِ مَن يوشك أن يمرض. ولكنّ ذلك لم يؤخّر أو

يُقدِّم في ما كان عليه أن يعمله. فاندفع حالاً صوب الوحش واستهدف جنبه بضربةٍ من سيفه. لكنَّ الضربة لم تُصِب الذئب قطّ. فأدار هذا وجهه بسرعة البرق، وعيناه تقدحان شرراً، وفمه مفتوحٌ على وسعه، وهو يعوي عواء غضب. ولو لم يكن غضبه شديداً جدًّا بحيث كان عليه أن يعويَ فقط، لكان أمسك بحنجرة بطرس حالاً. ففي تلك الحالة، وإن كان ذلك قد حدث بأسرع من أن يُتاح لبطرس أيُّ مجالٍ للتفكير، تسنَّى له كسرٌ من الوقت ضئيل ليُراوغ الذئب ويطعن بالسيف قلب ذلك الوحش، من بين قائمتيه الأماميَّتين، بأقوى ضربةٍ يستطيعها. ثمَّ كانت لحظة رعب وارتباك، كما في كابوسٍ رهيب. فقد أخذ بطرس يشدُّ سيفه ويسحبه، وقد بدا أنَّ الذئب لا حيٌّ ولا ميْت، واصطدمت أسنانه بجبهة بطرس، فما كان إلَّا دمٌ وسخونة وشعر. وبعد لحظة واحدة رأى الوحش منطرحاً وهو ميْت، وقد سحب سيفه منه، وأخذ يُقوِّم ظهره ويمسح العرق عن وجهه ومن عينيه. وشعر أن التعب قد هدَّ جسمه كلَّه.

ثُمَّ بعد قليل نزلت سوزان عن الشجرة. وقد شعرت هي وبطرس كلاهما بكثير من الارتعاد عندما تقابلا، ولا داعيَ لأنْ أقول إنَّه كان تقبيل وبكاء كثيران من كليهما، مع أنَّه في نارْنيا لا يُعبِّر السكَّان عن مشاعرهم عادةً بمثل هذه الطريقة الصريحة.

ثمَّ صاح أصلان بصوتٍ عالٍ: «هيّا، هيّا، يا قناطيرُ ويا نسور! فأنا أرى في الدغل ذئباً آخر، هُناك وراءكم. وها قد

فرَّ توًّا. وراءه جميعاً! إنَّه مُنطلِق إلى سيِّدته. الآنَ فرصتكم المؤاتية للعثور على الساحرة وإنقاذ ابن آدم الرابع!» وفي الحال، بعاصفةٍ من خبط الحوافر وخفق الأجنحة، انطلق بضعة عشر من أسرع المخلوقات واختفوا في قلب العتمة المحيطة.

ثمَّ التفت بطرس، وهو ما يزال يلهث، فرأى أصلان على مقربة منه.

وقال له أصلان: «نسيتَ أن تُنظِّف سيفك».

كان ذلك صحيحاً. وقد احمرَّ خدًّا بطرس لمَّا نظر إلى نصل السيف البرّاق فرآه كلَّه ملطَّخاً بدم الذئب وشعره. فانحنى ونظَّف السيف تماماً بمسحة على العشب، ثمَّ نشَّفه بمسحه على معطفه.

وقال أصلان: «أعطِني السيف واركع، يا ابن آدم!»

فلمّا فعل بطرس ذلك، مسَّه أصلان بمسطَّح شفرة السيف وقال له:

«انهض، أيُّها الأمير الفارس، بطرس قاهر الذئب! ومهما حدث، فلا تنسَ أبداً أن تمسح سيفك».

الفصل الثالث عشر

سحرٌ قويٌّ من فجر الزمان

علينا الآن أن نرجع إلى إدمون. فلمّا مشى مسافةً أطول بكثير جدًّا ممّا يستطيع أحد أن يمشيها حسب علمه، توقّفت الساحرة أخيراً في وادٍ معتم تُظلّله أشجار الشربين والصنوبر البرّيّ. ولم يكُن من إدمون إلّا أن انهار وتمدّد أرضاً على وجهه، دون أن يعمل أيّ شيءٍ آخر. حتّى إنّه لم يهمّه ما سيجري تالياً، غير أن يُترك وشأنه ممدّداً بلا حراك. فقد هدّه التعب جدًّا بحيث فاته أن يلاحظ كم كان جائعاً وعطشان. وأخذت الساحرة والقزم يتحدّثان قُربه بصوتٍ منخفض.

قال القزم: « لا، لا نفع الآن، أيّتها الملكة. لا بدّ أنّهم وصلوا قبل الآن إلى طاولة الحجر».

فقالت الساحرة: «لعلّ الذئب يتشمّمنا ويحمل إلينا الخبر اليقين!»

فقال القزم: «لن يحمل إلينا خبراً طيّباً، إذا حمل أيّ خبر». أجابت الساحرة: «في كَيرپراڤيل أربعة عروش. فماذا لو تمّ الجلوس على ثلاثة منها فقط؟ لن

يكون هذا تحقيقاً للنبوءة».

فقال القزم: «أيُّ فرقٍ يُجريه هذا وها هو الآن هُنا؟» ولم يستجرىء، حتّى الآن، أن يذكر اسم أصلان لسيّدته.

«ربّما لا يبقى هنا طويلاً. وعندئذٍ نُهاجِم الثلاثة في كِير».

قال القزم: «ومع ذلك، فقد يكون أفضل أن نحتفظ بهذا (ثمّ رفس إدمون) كي نُساوِم به».

فقالت الساحرة باستهزاء: «نعم! وبهذا تُنقِذه».

أجاب القزم: «إذاً ما يجب أن نعمله، فلنعمله في الحال».

فقالت الساحرة: «أُريد القيام بهذا العمل على طاولة الحجر ذاتها. فهنالك المكان الصحيح. وهُنالك تمّ العمل دائماً من قبل».

قال القزم: «سيمرُّ زمان طويل من الآن حتّى يمكن أن تُستخدم طاولة الحجر استخدامها الصحيح».

فقالت الساحرة: «صحيح!» ثمّ أضافت: «طيّب، سأبدأ عملي!»

تلك اللحظة اندفع نحوها ذئبٌ اندفاعة سريعة وهو يعوي قائلاً:

«لقد رأيتُهم. إنّهم كلّهم معه عند طاولة الحجر. لقد قتلوا قائدي غدّاراً. كنت مختبئاً في الدغل ورأيتُ ذلك. إنّ واحداً من بني آدم قتله. هيّا نهرب!»

فقالت الساحرة: «لا! لا ضرورة للهرب. اذهب مسرعاً، واستدعِ جماعتنا كلَّها حتَّى تُلاقيَني هنا بأسرع ما يمكن. أُدعُ العمالقة ومسوخ الذئاب، وأرواحَ تلك الأشجار التي في صفّنا. أُدعُ الغيلانَ والبَعابع والأشباح والمينوطورات. ادعُ الوحوش الأشدّاء والمشعوذين والعفاريت والجنيّات والمَرَدة. سوف نُقاتِل! ماذا؟ أليست عصاي معي بعد؟ ألَن تتحوَّل صفوفهم إلى حجارة حالَما يُقبِلون علينا؟ انطلِق مسرعاً، فعندي هنا عمل بسيط يجب أن أُنجِزه في غيابك».

فحنى الوحش الهائل رأسه، والتفت، وانطلق راكضاً.

ثمّ قالت: «هيّا! ليس عندنا طاولة هنا. سأُدبِّر الأمر. فلنقُم بعملنا على جذع شجرة!»

أُرغِم إدمون على الوقوف بقسوة. ثمّ ثبَّته القزم وظهرُه إلى جذع شجرة، وربطه بإحكام. ورأى إدمون الساحرة تخلع رداءها الخارجيَّ، فتظهر ذراعاها العاريتان شاحبتَين شحوباً رهيباً. وقد رأى الذراعين لأنّهما كانتا بيضاوَين، لكنّه ما قدر أن يرى كثيراً غيرهما، لأنّ العتمة الشديدة كانت تلف ذلك الوادي بظلال الشجر القاتم.

قالت الساحرة: «جهِّز الضحيّة!» فحلَّ القزم قبّة إدمون، وطوى قميصه إلى الوراء عند الرقبة. ثمّ أمسك بشعر إدمون ودفع رأسه إلى الوراء، حتّى اضطرّه إلى رفع ذقنه. بعد ذلك سمع إدمون صوتاً غريباً: وِزّ، وِزّ. ولم

يستطع أن يُفكِّر لحظةً ماذا كان الصوت. ثمّ أدرك حقيقته. لقد كان صوت سكّين تُسَنّ.

في تلك اللحظة عينها سمع صرخات عالية من كلّ جهة، خبْط حوافر وخفْق أجنحة، زعقةً من الساحرة مع اضطراب حواليه. ثمّ وجد أنّ رُبُطه تُحلّ. وإذا ذراعان قويّتان تطوّقانه، وإذا به يسمع أصواتاً عالية ولطيفة تقول أقوالاً مثل...



«دعوه يستلقِ – اعطوه شيئاً من النبيذ – اشربْ هذا – اهدأ الآن – ستكون بخير بعد دقيقة واحدة».

ثمّ سمع أصوات ناسٍ لا يتحدّثون إليه بل يكلّمون بعضهم بعضاً. وكانوا يقولون أقوالاً مثل... «مَن أمسك بالساحرة؟ ... ظننتُ أنّك أمسكتَ بها... لم أرَها بعدما خطفتُ السكّين من يدها... كنتُ أُطارِد القزم... أتقصد أنها هربت؟... لا يقدر المرء أن يهتمّ بكلّ شيء في وقت واحد... ما هذا؟... عفواً، إنّها أرومة شجرة عتيقة فحسْب!» ولكنْ في تلك اللحظة تماماً أُغمي على إدمون إغماءةً شديدة.

وفي الحال أسرعت القنطورات وأحاديات القرن والغزلان والطيور (وهي طبعاً فرقة الإنقاذ التي أرسلها أصلان كما ذكرنا في الفصل السابق) راجعةً إلى طاولة الحجر، حاملةً إدمون معها. ولكنْ لو قدرتَ أن ترى ما جرى في ذلك الوادي بعد ذهابها، لدُهشتَ أيَّ دهشة كما أعتقد.

كان الهدوء التام مخيِّماً، وإذا بالقمر يتألَّق فوراً. ولو كُنتَ هنالك لرأيت ضوء القمر مترامياً على أرومة شجرة عتيقة وعلى كتلة صخريّة مدوَّرة معتدلة الحجم. ولكنْ لو حدَّقتَ أكثر، لبدأتَ تدرك شيئاً فشيئاً أنَّ في تلك الأرومة وتلك الصخرة أمراً غريباً. ثمَّ إنّك كنتَ تظنُّ أنَّ أرومة الشجرة تظهر فعلاً بمظهر رجلٍ سمين ضئيل رابضٍ على الأرض. ولو أدمْتَ النظر لرأيتَ الأرومة تمشي صوبَ كتلة الصخر، والكتلة تجلس وتحادث الأرومة. فإنَّ الأرومة والكتلة ما كانتا بالحقيقة إلّا الساحرة والقزم. فكانت بسحرها تقدر أن تجعل الأشياء تظهر بغير مظهرها، كما كان لها من الفطنة ما جعلها تفعل ذلك لحظةَ خَطْف السكّين من يدها. وقد ظلّت ممسكةً بعصاها فبقيت العصا سالمة أيضاً.

ثمَّ لمّا استيقظ الأولاد الآخرون صباحَ اليوم التالي (وقد كانوا نائمين على أكداسٍ من المخدّات في الخيمة الكبيرة)، كان أوّل ما سمعوه من السيّدة سمّورة أنَّ أخاهم قد أُنقِذ وأُحضِر إلى المُخيَّم في وقتٍ متأخرٍ البارحة، وأنّه آنذاك

مع أصلان. وما إن تناولوا الفطور، حتّى خرجوا جميعاً، فرأوا أصلان وإدمون يمشيان معاً على العُشب المبلَّل بالنَّدى، بعيدَين عن باقي أفراد الحاشية. ولا داعيَ لأن أقول لك (ولم يكن أحدٌ يسمع) ما كان أصلان يقوله، ولكنّه كان حديثاً لم ينسَه إدمون بتاتاً. وإذِ اقترب الآخرون، التفت أصلان لملاقاتهم، مصطحباً إدمون.

قال أصلان: «ها هو أخوكم. ولا داعيَ لمحادثته عمّا مضى».

وصافح إدمون كلاًّ منهم، وقال لكلٍّ واحد بدَوره: «أنا آسف!» فقال له كلٌّ منهم: «لا بأس!» ثمَّ أراد كلٌّ منهم إرادةً قويّة جدًّا أن يقول له شيئاً يوضّح له تماماً أنّهم أصحابٌ جميعاً، وهذا أمر طبيعي، ولكنَّ أيّاً منهم بالطبع لم يقدر أن يُفكِّر في أيِّ شيءٍ يمكن أن يقوله. ولكنْ قبل أن يتّسع لهم الوقت كي يشعروا بالاستغراب، اقترب أحد الفهود إلى أصلان وقال له:

«يا مولاي، حضر مبعوث من العدوّ، وهو يستأذن أن تكلّمه». فأجاب أصلان: «ليتقدَّم!»

ومضى الفهد ثمَّ عاد مسرعاً، يتبعه قزم الساحرة.

فسأله أصلان: «ما رسالتك، يا ابنَ الأرض؟»

قال القزم: «إنَّ ملكة نارنيا وإمبراطورة الجُزُر المنفردة تطلب الأمان حتّى تأتي وتكلّمك في مسألة تنفعك كما تنفعها».

فقال السيِّد سمُّور: «ملكة نارنيا حقًّا! بين كلّ الوقاحات...»

وقال أصلان: «صَه يا سمُّور! جميع الألقاب ستُعاد سريعاً إلى مالكيها الحقيقيّين. أمّا الآن، فلا نريد أن نتخاصم حولها. قُلْ لسيِّدتك، يا ابن الأرض، إنّني أمنحها الأمان، شرطَ أن تترك عصاها هناك عند تلك السنديانة الكبيرة».

تمّ الاتّفاق على ذلك، فعاد فهدان مع القزم للتأكُّد من الوفاء بشرط أصلان.

وهمست لوسي في أُذنِ بطرس: «ماذا لو حوّلت الفهدين حجرين؟» وأعتقد أنّ الفكرة نفسها خطرت على بال الفهدين. على كلٍّ، لمّا مضيا كان شعر ظهريهما وذيليهما كلُّه قد انتصب، كما ينتصب شعر الهرّة إذا رأت كلباً غريباً.

فردَّ بطرس هامساً في أُذن لوسي: «سيكون كلُّ شيء بخير. وإلّا لما أرسلهما».

وبعد بضع دقائق طلعت الساحرة نفسها تمشي على التلّ، وتقدّمت مباشرة حتّى وقفت أمام أصلان. ولمّا رأى وجهَها الأولاد الثلاثة الذين لم يسبق أن رأوها، أحسُّوا قُشعريرة تجتاح أجسامهم. كما خرخرت جميع الحيوانات خرخرةً خافتة. ومع أنّ الشمس كانت شارقة بنورها الساطع، فقد شعر الجميع بالبرد حالاً. أمّا الشخصان الوحيدان بين الحضور اللذان ظهرا مستريحينَ تماماً فكانا أصلان والساحرة نفسها. وما كان أغربَ أن ترى هذين

الوجهين، الوجهَ الذهبيّ والوجه الشاحب شحوب الموتى، قريبين هذا القُرب! غير أنّ الساحرة لم تكُن لتقوى على النظر إلى عيني أصلان مباشرة. وقد لاحظت السيّدة سمُّورة بشكلٍ خاص ذلك الأمر.

قالت الساحرة: «عندك خائن هناك، يا أصلان». وطبعاً، عرف جميع الحُضور أنّها قصدت إدمون. ولكنّ إدمون كان قد كفَّ عن التفكير في ذاته بعد كلّ ما عاناه، وبعد حديثه مع أصلان ذاكَ الصباح. فلم يعمل شيئاً سوى التحديق إلى أصلان. ولم يبدُ أنّه يهمُّه ما قالته الساحرة.

وقال أصلان: «حسناً، إنّ ذنْبه لم يكن موجَّهاً نحوكِ».

فسألتِ الساحرة: «وهل نسيتَ السحرَ القويّ؟»

فقال أصلان: «لِنَقُل إنّي نسيتُه. قولي لنا ما هذا السحر القويّ».

قالت الساحرة وصوتُها يزداد حدّةً بصورة مفاجئة: «أقول لك؟ أأقول لك ما هو مكتوب على طاولة الحجر القائمة قُربَنا هنا؟ أأقول لك ما هو محفورٌ بحروفٍ عميقة بطول الرُّمح في حجارة النار على التلّة السريّة؟ أأقول لك ما هو منقوشٌ على صولجانِ إمبراطور ما وراء البحر؟ فأنت على الأقلّ تعرف السحر الذي وضعه الإمبراطور في قلب نارنيا عند بدايتها تماماً. أنت تعرف أنّ كلّ خائنٍ مِلكٌ لي باعتباره فريستي الشرعيّة، وأنّه لقاءَ كلّ خيانة يحقّ لي أن أقتل شخصاً».

وقال السيِّد سمُّور: «أوه! إذاً هكذا صرتِ تتصوَّرين نفسكِ ملكة: لأنّك كُنتِ تقومين بدور جلّاد الإمبراطور. لقد فهمتُ!»

فقال أصلان بهرير منخفض جدًا: «سكوتاً، يا سمُّور!» وتابعت الساحرة تقول: «وهكذا، فذلك المخلوق البشريُّ لي. حياته هي الغرامة التي يؤدّيها لي، ودمه مِلكي».

فقال الثور الذي له رأس رجل، بصوت خُوارٍ عالٍ جدًا: «إذاً، تقدّمي وخُذيه!»

فردَّت الساحرة بضحكة متوحّشة تكاد تكون زمجرة: «يا أحمق! هل تعتقد حقًّا أن سيّدك يقدر أن يسلبني حقوقي بالقوّة وحدها؟ إنّه يعرف السحر القويَّ أفضل من ذلك. يعرف أنّه ما لم أحصُل على دمٍ كما تقول الشريعة، تنقلب نارنيا كلُّها وتهلك بالنار والماء!»

وقال أصلان: «صحيحٌ جدًا. لستُ أنكر هذا».

فهمست سوزان في أذن الأسد: «آه يا أصلان! ألا نقدر - أعني أنّك لن تسمح بذلك، أليس كذلك؟ ألا نقدر أن نعمل شيئاً بشأن السحر الغامض؟ أليس من شيء تقدر أن تعمله ضدَّه؟»

قال أصلان: «اعمل شيئاً ضدَّ سحر الإمبراطور؟» ملتفتاً إلى سوزان بما يشبه عبسةً على وجهه. إذ لم يقترح عليه أحدٌ سابقاً ذلك الاقتراح بعد.

كان إدمون إلى جانب أصلان الآخر، ناظراً وجه أصلان كلَّ حين. وشعر كما لو كان يختنق، وتساءل هل يجب أن يقول شيئاً. ولكنَّ بعد لحظة واحدة أحسَّ أنّه غير مطلوب منه أن يفعل أيَّ شيء سوى الانتظار وإطاعة ما يُقال له.

ثمَّ قال أصلان: «تراجعوا كلُّكم، فأُكلِّمَ الساحرة وحدَنا».

فتراجع الجميع. وكم كان رهيباً ذلك الوقت، وقت الانتظار والتساؤل، فيما تحدَّث الأسد والساحرة بحرارة وصوتٍ منخفض! وقالت لوسي: «آه، يا إدمون!» ثمَّ أخذت تبكي. أمّا بطرس فوقف مُديراً ظهرَه نحو الآخرين وناظراً إلى البحر البعيد. أمّا السمُّوران فوقفا مُمسكاً أحدهما بمخلب الآخر، حانيَيِ الرأس، فيما أخذت القنطورات تخبط الأرض بحوافرها مضطربة. ولكنَّ الهدوء ساد الجميع أخيراً، بحيث بات يمكنك أن تتنبّه إلى الأصوات الضئيلة، مثل طنين نحلة عابرة، أو زقزقة العصافير في الغابة تحتهم، أو حفيف ورق الشجر من هبوب النسيم. إلّا أنَّ الحديث بين أصلان والساحرة البيضاء استمرَّ رغم ذلك.

أخيراً سمعوا صوت أصلان قائلاً: «يمكنكم جميعاً أن ترجعوا. لقد حلَلتُ المسألة. فإنّها تخلّت عن مطالبتها بدم أخيكم». ثمَّ دبَّت الحركة من جديد في أنحاء التلّة كلِّها، وكأنَّ الجميع كانوا حابسين أنفاسهم ثمَّ بدأوا



يشهقون ويزفرون، ثمَّ سَرَت همهمة كلام.

وبينما الساحرة تهمُّ بأنْ تدير ظهرها لتمضي، وعلى وجهها علامات الفرح الخبيث، توقَّفت وقالت:

«ولكنْ كيف أتأكَّد أنه سيتم الوفاء بهذا الوعد ؟»

فزمجر أصلان: «هاااارّراه!» وهَمَّ بأن ينهض عن عرشه. ثم انفتح فمه الكبير أوسع فأوسع، وصارت الزمجرة أعلى فأعلى. وإذا بالساحرة، بعدما حدَّقت لحظةً وقد تباعَدت شفتاها كثيراً، ترفع أذيالها وتركض مسرعةً لتنجو بحياتها.

انتصار الساحرة

ما إن ذهبت الساحرة، حتّى قال أصلان: «علينا أن ننتقل من هذا المكان حالاً، فسيُطلَب لأغراضٍ أُخرى. سنُخيِّم الليلة قرب مخاضات بيرونا».

وكان الجميع بالطبع متلهِّفين لسؤاله عن كيفيّة ترتيبه للأمور مع الساحرة، إلّا أنّ وجهه كان عابساً، كما أنّ أُذنَي كلّ واحد من الحضور كانتا ما تزالان تطنّان من هدير زمجرته، فلم يستجرىء أحد على السؤال.

وبعدما تناولوا وجبة طعام في الهواء الطلق على رأس التلّة (إذ كانت الشمس آنذاك قد حميت وجفّفت العشب) انشغلوا حيناً بتفكيك الخيمة وحزم الأمتعة. ثمّ انطلقوا قبل الساعة الثانية بعد الظهر متوجّهين نحو الشمال الشرقيّ، ماشين على مهل، لأنّ المسافة التي أرادوا اجتيازها كانت قصيرة.

وفي أثناء المرحلة الأولى من الرحلة، أوضح أصلان لبطرس خطّة حمْلته، قال: «حالما تنتهي الساحرة من عملها في هذه النواحي، فإنّها على الأرجح سترجع مع

جماعتها إلى بيتها وتعدّ عدّة الحصار. وقد تنجح أنت أو تفشل في قطع الطريق عليها ومنعها من الوصول». ثمّ تابع حديثه راسماً الخطوط العريضة لخطّتين حربيّتين، إحداهما لمقاتلة الساحرة وقومها في الغابة والأُخرى لمهاجمة قصرها. وقضى الوقت كلّه يوجّه بطرس كيف يُدير العمليّات، قائلاً أقوالاً مثل: «عليك أن تضع قنطوراتك في هذا المكان أو ذاك» أو «عليك أن تُقيم كشّافين للتأكّد من أنّها لا تفعل هذا العمل أو ذاك»، حتّى قال بطرس أخيراً:

«ولكنّك ستكون أنت نفسك حاضراً، يا أصلان».

فأجابه الأسد: «لا أقدر أن أعِدَك بهذا». ثمّ تابع تزويد بطرس بتوجيهاته.

وفي المرحلة الأخيرة من المسيرة، تأمّلت سوزان ولوسي أصلان مليّاً، فبدا لهما حزيناً لأنّه لم يتكلّم كثيراً.

ولم تكن الشمس قد غابت لمّا وصلوا إلى مكانٍ فيه اتّسع وادي النهر وصار النهر عريضاً وقليل العمق. تلك كانت مخاضات بيرونا، فأصدر أصلان أمره بالتوقّف عند تلك الضفّة من النهر. ولكنّ بطرس قال:

«ألا يكون أفضلَ أن نُخيّم في الضفّة الأُخرى البعيدة، خوفاً من أنّ تحاول شنّ غارة ليليّة أو القيام بأيّ تحرّك آخر؟»

إلّا أنّ أصلان، وقد بدا أنّه يفكّر في شيء آخر، نهض هازاً لُبدتَه الضخمة وقال: «إه؟ ماذا قلت؟» فكرّر بطرس القول عينه.

فأجاب أصلان بصوت بطيء وكأنَّ الأمر غير مهمّ: «لا، لا. لن تشنَّ هجوماً الليلة». ثمَّ تنهَّد تنهُّدةً عميقة. لكنَّه ما لبث أن أضاف: «ومع ذلك، فقد جرى التحسُّب لكلِّ شيء. وهكذا يجب على الجنديِّ أن يفكِّر. غير أنَّ الأمر لا يهمُّ فعلاً». ومن ثَمَّ أخذوا ينصبون خيامهم.

تأثَّر الجميع بمزاج أصلان ذلك المساء. وشعر بطرس أيضاً بانزعاج من فكرة خوضه المعركة وحده، وقد صدمه إخبارُ أصلان إيّاه بأنَّه ربَّما لن يكون هو هناك صدمةً كبيرة. وكان العشاء في ذلك المساء وجبة طعام صامتة، لمس الجميع كم كانت مختلفة عن عشاء البارحة، بل أيضاً عن فَطور اليوم. فقد بدا كأنَّ الأوقات السعيدة التي بدأت منذ هُنيهة قد أخذت تقترب من نهايتها!

وقد أثَّر هذا الشعور في سوزان كثيراً جدًّا، حتّى طار النوم من عينيها لَمّا أوت إلى الفِراش. وبعدما تمدَّدت وهي تعدُّ خِرافاً وهميَّة لعلَّها تنام، وتتقلَّب من جنب إلى جنب، سمعت لوسي تتنهَّد طويلاً وتتقلَّب قربها في الظلام.

فقالت سوزان: «أأنتِ أيضاً لا تقدرين أن تنامي؟»

أجابت لوسي: «لم أقدِر ... وحسبتكِ نائمة.

ما قولك يا سوزان؟»

«ماذا؟»

«عندي شعور رهيب جدًّا، كأنَّ شيئاً يضغط علينا».

«صحيح؟ فبالحقيقة، أنا أيضاً عندي شعور كهذا».

قالت لوسي: «شيءٌ من جهة أصلان. إمّا شيءٌ رهيب سيحدث له، وإمّا شيء رهيب سيعمله».

فقالت سوزان: «كان يبدو عليه الانزعاج والضيق طيلة بعد الظهر والعصر. لوسي! ما الذي قصدَهُ بعدم حضوره معنا في المعركة؟ إنَّك لا تعتقدين أنَّه يمكن أن ينسلَّ ويتركنا الليلة، أتعتقدين ذلك؟»

سألت لوسي: «أين هو الآن؟ أهو هنا في الخيمة الكبيرة؟»

«لا أظنُّ ذلك».

«سوزان! لنخرجْ خارجاً ونُلقِ نظرة حوالينا، عسى أن نراه!»

فقالت سوزان: «طيِّب، لنخرج! ربَّما كان هذا أفضل من مجرَّد تمدُّدنا هنا بلا نوم».

وتلمَّستِ البنتان بمنتهى الهدوء طريقهما بين النائمين الآخرين وانسلَّتا إلى خارج الخيمة. وكان ضوء القمر ساطعاً، وكلُّ شيء ساكناً تماماً، ما عدا صوت النهر مُثرثراً فوق الحجارة. ثمَّ أمسكت سوزان فجأةً بذراع لوسي قائلةً: «انظري!» وفي الجهة البعيدة من أرض المخيَّم، حيث أوَّلُ الشجر تماماً، رأتا الأسد يمشي ببطء مبتعداً عنهم وداخلاً الغابة. فتبِعتاه كِلتاهما دون أن تقولا كلمة واحدة.

وتقدَّمهما الأسد صعوداً على المنحدر الشديد إلى خارج وادي النهر، ثمَّ انعطف قليلاً نحو اليمين، سالكاً على ما يبدو الطريقَ عينها التي ساروا فيها بعد ظُهر ذلك اليوم نزولاً من تلّة طاولة الحجر. ومضى يتقدَّمهما في وسط الظلال المعتمة ثمَّ إلى الأماكن التي يترامى عليها ضوء القمر الباهت، حتَّى تبلَّلت أقدامهما بالندى الكثيف. وقد بدا لهما مختلفاً بعض الشيء عن أصلانِ الذي عرفتاه. كان يخفض ذيله ورأسه ويمشي على مهل كأنَّه كان مُتعَباً جدّاً جدّاً. ثمَّ بينما كانتا تعبران مكاناً واسعاً خالياً، لا ظِلال فيه تُخفيهما، توقَّف والتفت إلى الوراء. وإذ كانت محاولة الهرب غير نافعة، تقدَّمتا نحوه. حتَّى إذا اقتربتا منه أكثر، قال:

«أوه، أيَّتها البنتان الصغيرتان، لماذا لحقتما بي؟»

فقالت لوسي: «لم نقدِرْ أن ننام»، ثمَّ تأكَّد لها أنَّها لا تحتاج لأنْ تقول شيئاً بعد، وأنَّ أصلان عرف ما كانتا تفكِّران فيه.

وقالت سوزان: «رجاءً، هلاَّ نذهب معك، حيثما كنتَ ذاهباً!»

أجاب أصلان «حسناً...» وبدا أنَّه يفكِّر. ثمَّ قال: «ستسرُّني رفقتكما الليلة. نعم، يمكنكما أن تأتيا، إذا وعدتماني بالتوقُّف عندما أقول لكما، ومن ثَمَّ تتركانني أذهب وحدي».

فقالت البنتان: «أوه! شكراً لك، شكراً لك! سمعاً وطاعة!»

ثمَّ تابعوا السير أيضاً وكلٌّ من البنتَين إلى جانب من جانبيه. ولكنْ كم كانوا بطيئين في سيرِهم، فيما رأسُ الأسدِ الملوكيُّ الكبيرُ منخفض حتَّى يكاد أنفه يمسُّ العشب! وما لبث أن تعثَّرَ وأنَّ أنيناً خافتاً.

فقالت لوسي: «أصلان! أيُّها العزيز أصلان! ما بك؟ ألا يمكن أن تقول لنا؟»

وسألته سوزان: «أأنت مريض، يا عزيزنا أصلان؟»

فقال أصلان: «لا! إنَّني حزين وأشعر بالوحدة. ضعا يدَيكما على لُبدتي حتَّى أشعر بوجودكما، ولْنمشِ هكذا».

وهكذا فعلت البنتان ما لم يكن ممكناً أن تستجرئا على فعله دون إذنٍ من الأسد، وكانتا متشوِّقتين إلى فعله منذُ رأتاه أوَّلاً: فأغرقتا يديهما الباردتين في بحر فروه الجميل وربَّتتاه، وسارتا وهما تفعلان ذلك. وما لبثتا أنِ انتبهتا إلى أنَّهما تصعدان معه منحدر التلِّ الذي قامت فوقه طاولة الحجر. وقد صعدوا في الجهة التي فيها كانت الأشجار عالية جدًا. ولمَّا وصلوا إلى آخِر شجرة (وكان حولها بعض الشجيرات الشائكة)، توقَّف أصلان وقال:

«أيتها البنتان العزيزتان، ينبغي أن تتوقَّفا هنا. ومهما جرى، فلا تدعا أحداً يراكما. وداعاً!»

فبكت كِلتا البنتين بكاءً مُرّاً (مع أنّهما لم تعرفا السبب تقريباً)، والتصقتا بالأسد، وقبّلتا عرفه وأنفه ومخالبه وعينيه الكبيرتين الحزينتين. ثمّ تحوّل عنهما ومضى ماشياً نحو أعلى التلّة. أمّا هُما، فلبدتا بين الشجيرات الشائكة، وأخذتا تراقبانه. وإليك ما شاهدتاه.

كان جمعٌ غفير محتشداً وقوفاً حول طاولة الحجر. ومع أنّ القمر كان طالعاً، فإنّ كثيرين منهم كانوا حاملين مشاعل تتصاعد منها ألسنة لهب ذات مظهر شرّير ودخانٌ أسود. ولكنْ أيُّ قوم كان هؤلاء! غيلانٌ ذات أنياب وحشيّة، وذئاب، ورجال لهم رؤوس ثيران، وأرواح أشجار شرّيرة ونباتات سامّة، ومخلوقاتٌ أُخرى لَن أصفها، لأنّني لو وصفتها ما كان الكبار على الأرجح يسمحون لكَ بقراءة هذا الكتاب: وحوش وعفاريت وجنّياتٌ قرائن، وأشباح وأطيافُ شؤم، وهُولات وعفريتات وجنٌّ صغار، وغيلانٌ وبعابع... فبالحقيقة أنّ المجتمعين هناك كانوا كلّهم
في صفّ الساحرة وقد استدعاهم الذئب إطاعةً لأمرها. وفي الوسط تماماً، كانت الساحرة نفسُها، واقفةً قرب الطاولة.

وما إن رأت تلك المخلوقاتُ الأسد الكبير قادماً نحوها، حتّى أطلقت ولولةً وصرخةَ فَزَع. وبدا لحظةً أنّ الساحرة نفسها قد صعقها الخوف.

ثمّ تمالكت نفسها وأطلقت ضحكةً خبيثةً شرسة، وصاحت:

«الأحمق! جاء الأحمق! اربطوه ربطاً شديداً».

حبست لوسي وسوزان أنفاسهما انتظاراً لزمجرة أصلان ووثوبه على الأعداء. ولكنّ ذلك لم يحصل. وكان قد اقترب منه أربعة عفاريت مكشّرين والشرر يتطاير من أعيُنهم، مع أنّهم أيضاً تراجعوا (أوّل الأمر) متخوّفين ممّا ينبغي ان يفعلوه به. فصاحت الساحرة البيضاء ثانيةً: «اربطوه! هذا أمري!»

هجم العفاريت عليه بسرعة، وزعقوا زعقة انتصار لمّا رأوه لا يُبدي أيّة مقاومة على الإطلاق. ثمّ اندفع آخرون لمساعدتهم، من أقزام وقرود أشرار. وتعاونوا جميعاً فقلبوا الأسد الضخم على ظهره، وربطوا مخالبه الأربعة معاً، هاتفين وصارخين كأنّهم فعلوا أمراً باسلاً، مع أنّه لو أراد الأسد لأماتهم جميعاً بضربةٍ من أحد مخالبه. ولكنّه لم يُصدِر أيَّ صوت، حتّى عندما شدَّ الأعداء الحبال بقوّة وعنف حتّى حزّت جسمه حزّاً. ثمّ بدأوا يجرّونه نحو طاولة الحجر.

إذ ذاك صاحت الساحرة: «مهلاً! لنحلِقْ له أوّلاً!» وانطلقت من جماعتها قهقهةٌ أُخرى من الضحك الدنيء، فيما تقدّم غولٌ يحمل مقصّا وقرفص قرب رأس أصلان. ثمّ أصدر المقصّ صوت قصقصته، وتساقطت إلى الأرض خُصل الشعر الذهبّي الملتفة قُصاصةً قُصاصة. ثمّ تراجع

الغول، فيما استطاعت البنتان وهما تُراقبان من مخبإهما أن تريا رأس أصلان يبدو كلُّه صغيراً ومختلفاً بغير لُبدته. كذلك لاحظ الأعداء الفرق.

فصاح واحد: «عجباً، أليس هو مجرّد هرّ كبير الآن؟»

وقال آخر: «أهذا هو ما كُنّا خائفين منه؟»

ثمّ طافوا حول أصلان ساخرين منه، قائلين أقوالاً مثل «هرّ، هرّ مسكين!» أو«كم فارةً تصيّدتَ اليومَ يا هِرّ؟» أو «أتريد طاسة حليب يا حضرة الهر؟»

فقالت لوسي والدموع تتدحرج على خدّيها: «آه، كيف يمكن أن يفعلوا هذا؟ وحوش! أوغاد!» ولكنْ ما إن زالت الصدمة الأولى، حتّى بدا لها وجه أصلان الحليقُ اكثر شجاعةً وجمالاً وصبراً من ذي قبل.

ثمّ قالت الساحرة: «كمّموه!» وإذ مضوا يضعون الكمامة على فمه، فعندئذٍ أيضاً كان يمكن لعضّةٍ واحدة من فكّيه أن تقطع أيدي اثنين منهم أو ثلاثة. غير أنّه لم يتحرّك قطّ. وبدا أنّ ذلك أغضب الحشد النذل كلَّه، فهجم عليه الجميع. وكلُّ من كان خائفاً منه، حتّى بعد ربْطه، بدأ يستجمع شجاعته. ثمّ مضت بضع دقائق والبنتان لا تقدران أن ترياه، إذ كان يُحيط به بكثافة حشدُ المخلوقات كلّه، وهم يركلونه ويضربونه ويبصقون عليه ويستهزئون به.

أخيراً شبع الحشد الشرّير من ذلك كلّه. وأخذوا

يجرّون الأسد المربوط والمكموم نحو طاولة الحجر، بعضُهم يسحبونه وبعضهم يدفعونه. وقد كان ضخماً جدًّا، حتّى إنّهم لمّا وصلوا به إلى الطاولة بذلوا أقصى جهدهم لرفعه إلى سطحها. ثمّ عمدوا إلى مزيدٍ من شدّ الحبال وإحكامها.

فقالت سوزان متنهّدة باكية: «كم هم جُبناء أدنياء! أما زالوا خائفين منه الآن أيضاً؟»

وما إن رُبِط أصلان تربيطاً شديداً (حتّى صار كتلة من الحبال فعلاً) على الحجر المفلطح، حتّى خيّم السكوت على الحشد. ووقف عند زوايا الطاولة أربعة غيلان، حاملين أربعة مشاعل. ثمّ شمّرت الساحرة عن ذراعيها كما شمّرت عنهما البارحة لمّا كان إدمون فريستها قبل أصلان، وبدأت تسنّ السكّين. وإذ ترامى على السكّين ضوء المشاعل، بدت للفتاتين كأنّها مصنوعة من حجر، لا من فولاذ، وكان شكلها غريباً ورديئاً.

أخيراً تقدّمت الساحرة، ووقفت قرب رأس أصلان. وكان وجهها مضطرباً ونابضاً بالغضب الشديد. أمّا وجهه هو فكان شاخصاً نحو السماء، يسوده السكون، ولم يبدُ عليه الغضب ولا الخوف، بل شيءٌ من الحزن. وقبل أن تطعن طعنتها تماماً، انحنت وقالت بصوت مُترجرج:

«والآن، مَنِ انتصر؟ يا أحمق، هل ظننت أنّك بهذا كلّه تُخلّص الخائنَ البشريّ؟ الآن سأقتلك بدلاً



منه كما يقضي اتّفاقنا، وبذلك يوفى بمطالب السحر القويّ. ولكنْ عندما تموت، ماذا يمنعني من قتله أيضاً؟ ومَن يُنقِذه من يدي عندئذٍ؟ افهم أنّك أعطيتَني نارنيا إلى الأبد، وأنّك خسرتَ حياتك ولم تُنقِذْ حياته. اعلم هذا، ومُتْ يائساً!»

ولم ترَ البنتان لحظة الذبح الفعليّة. فإنّهما لم تُطيقا النظر وغطّتا وجهيهما بأيديهما.

الفصل الخامس عشر

سحرٌ أقوى من قبلِ فجر الزمان

بينما كانت البنتان ما تزالان لابدتَين بين العُلَّيق وأيديهما على وجهيهما، سمعتا صوت الساحرة منادياً:

«هيّا الآن! اتبعوني كلُّكم حتّى نحسم ما بقي من هذه الحرب! لن يطول بنا الوقت حتّى نسحقَ جرثومة البشر والخَوَنة ما دام الأحمق العظيم، الهرُّ الكبير، قد مات».

حينذاك أحدق بالبنتين خطر عظيم جدّاً على مدى بضع ثوانٍ. فبزعقاتٍ مُنكَرة وعزيف ناياتٍ رهيب ونفخ أبواقٍ حادّ، اندفعت تلك الجماعة الرديئة كلُّها من على التلّ، عابرةً قرب مخبإهما تماماً. وأحسّتا الأشباح تتجاوزهما كرياح باردة، والأرض تهتزُّ دونهما تحت أقدام المينوطورات الراكضة. وفوقَ رأسيهما عبرت موجةُ أجنحةٍ خبيثة وغيمةُ سوداء من الكواسر والوطاويط الضخمة. وكان من شأنهما في أيّ وقت آخر أن ترتجفا خوفاً. أمّا الآن فإنّ ما

رافق موت أصلان من حزنٍ وعار وهول ملأ رأسيهما كليّاً حتّى أنهما بالكادّ كانتا تفكّران بما يجري.

وما إن ساد الصمتُ الغابةَ من جديد، حتّى انسلّت سوزان ولوسي وصعدتا إلى رأس التلّة المكشوف. وكان القمر آخذاً في الانخفاض، وغيومٌ رقيقة تمرُّ أمام وجهه، إلّا أنّهما استطاعتا أن تريا شكلَ الأسد ممدّداً وهو ميّت ومُربَّط. فركعتا على العشب المبلَّل بالندى وقبّلتا وجهه البارد، وربّتتا فروه الجميل – أو ما بقي منه – وبكتا حتّى جفّت دموعهما. ثم نظرت كِلتاهما إلى الأخرى وأمسكتا إحداهما بيد الأُخرى شعوراً منهما بالوحدة والوحشة، ثمّ عادتا إلى الصمت. وأخيراً قالت لوسي:

«لا أُطيق رؤية هذه الكمامة الشنيعة. تُرى، أيمكننا أن ننزعها؟»

وهكذا حاولتا ذلك. وبعد كثير من الجهد (لأنّ أصابعهما كانت باردة وكان ذاك أشدَّ قسمٍ من الليل ظلاماً) نجحتا. ولمّا شاهدتا وجهه بلا الكمامة، انفجرتا تبكيان من جديد وتقبّلانه وتُربّتانه وتمسحان عنه الدمَ

والرغوة بقدر استطاعتهما. وقد كان الوضع كلُّه يتّصِف متميِّزاً بالوحشة والشعور بالوحدة واليأس والأسى والسوء إلى حدٍّ أعجز عن وصفه.

وما لبثت سوزان أن قالت: «تُرى، هل نقدر أن نفكَّ رُبُطَه أيضاً؟» غير أنَّ الأعداء، من حقدهم ونكايتهم، كانوا قد ربطوا الحبال ربطاً مُحكَماً جدًّا بحيثُ لم تقدر البنتان أن تحلّا أيّة عقدة.

أرجو ألّا يكون أيُّ شخص ممّن يقرأون هذا الكتاب قد مرَّ في حالة بؤس وتُعسٍ كالتي عانتها سوزان ولوسي تلك الليلة. ولكنْ إن كنتَ مثلاً قد اضطُرِرتَ إلى البقاء بلا نوم طول الليل، وبكيتَ حتّى جفّت دموعك، فلا بدَّ أن تعرف أنّه أخيراً يحلُّ شيءٌ من الهدوء. فتشعر أنّه لن يحدث أيُّ شيء بعد، على ما يبدو. ومهما يكن من أمر، فهكذا شعرت هاتان البنتان. إذ بدا أنَّ ساعاتٍ طويلةً مرّت على ذلك الهدوء الموحِش، وبالكاد لاحظتا أنّهما تبردان أكثر فأكثر. ولكنْ أخيراً لاحظت لوسي شيئين آخرين، كان أحدهما أنَّ السماء إلى الجهة الشرقيّة من التلّة صارت أقلَّ ظلاماً مما كانت قبل ساعة. أمّا الثاني فكان حركة خفيفة ما، حاصلةً في العشب عند قدميها. لم تهتم في البداية بهذا الأمر. فما أهمية ذلك؟ لم يعُدْ هناك شيءٌ مهم! ولكنْ في الأخير رأت ذلك الشيء وقد بدأ يتحرّك صعوداً على قوائم طاولة الحجر الصخريّة. ثمّ أخذ كثير من ذلك الشيء يروح ويجيء على جسم

أصلان. فحدّقت لوسي تحديقاً أدقّ، وإذا أمامها أشياءُ رماديّة صغيرة تتحرّك.

وقالت سوزان، من جانب الطاولة الآخر: «شيءٌ مُقرِف! أمرٌ كريه! ها هي فئران صغيرة بغيضة تزحف عليه. اذهبي من هنا أيّتها المخلوقات الصغيرة الحقيرة!»

ولكنَّ لوسي قالت لها: «مهلاً!» وكانت ما تزال تراقب الفئران من قُرب. ثمّ أضافت: «هل ترَين ما تعمله؟»

فانحنت كِلتا الفتاتين تحدّقان.

وقالت سوزان: «أعتقد فعلاً... ولكنْ ما أغرب هذا! إنّها تقرض الحبال!»

فقالت لوسي: «هذا ما حسبْتُه. أظنُّ أنّها فئران صديقة. يا لها من مخلوقات صغيرة مسكينة، لا تدري أنّه ميْت! فهي تظنُّ أنَّ فكَّ قيوده ينفعه».

وما إن تزايد الضوء قليلاً، حتّى لاحظت كلتا البنتين أوّلَ مرّة الوجهَ الشاحب للأخرى. وتمكّنتا أن تريا الفئران



تقرض الحبال، وكانت عشراتٍ وعشرات، بل مئاتٍ من فئران الحقل الصغار. وفي الأخير تمّ حلُّ الحبال كلّها، بعد قرضها واحداً واحداً.

في هذه الأثناء، أخذ الفضاء الشرقيُّ يصبحُ أكثر بياضاً وأخذت النجوم تذوي شيئاً فشيئاً، ما عدا نجمة كبيرة جدًّا في أسفل الأفق الشرقيّ. وما لبثت البنتان أن شعرتا بالبرد أكثر ممّا كانتا تحسّانه طول الليل. وزحفت الفئران مبتعدةً عن المكان.

أبعدت الفتاتان بقايا الحبال المقروضة. فبدا أصلان أشبه بذاته من دونها. وكلما تزايد النور وأمكنهما أن ترياه رؤيةً أوضح، كان وجهه يبدو أكثرَ نبلاً.

ووراءهما في الغابة، غرّد طائرٌ تغريدَ ابتهاج، بعدما كان السكون قد خيّم ساعات طويلة، فأجفلتا منه. ثمّ جاوبه طائر آخر. وسرعان ما عمّ تغريدُ الطيور وزقزقةُ العصافير المكانَ كلَّه.

آنذاك كانت تباشير الصباح قد لاحت فعلاً، وظلام الليل تراجَع. وقالت لوسي: «أشعر ببردٍ شديد».

فقالت سوزان: «وأنا كذلك. فلنتمشَّ قليلاً!»

ومشتا إلى الجانب الشرقيّ من التلّة ثمّ نظرتا إلى أسفل. فإذا النجمة الوحيدة الكبيرة كادت تغيب. وبدت البراري كلّها رماديّة داكنة، ولكنْ من ورائها، عند آخِر العالم تماماً، ظهر البحر شاحباً. وبدأت السماء تحمرّ. فتمشّت الفتاتان جيئةً وذهاباً مرّاتٍ أكثر من أن تعدّاها،

بين جثّة أصلان وحافة التلّ الشرقيّة، عسى أن تدفآ؛ وكم أحسّتا أرجلهما مُتعَبة! ثمّ وقفتا أخيراً هُنيهةً تتطلّعان بعيداً إلى البحر وإلى قلعة كيرپرافيل (وما استطاعتا تبيُّن هيئته إلا الآن)، حيث تحوّل الاحمرار إلى لون الذهب على طول الخطّ الذي فيه يتلاقى البحر والأفق، وطلع قرن الشمس بمنتهى البطء. في تلك اللحظة سمعتا وراءهما حسّاً عالياً، صوت طقطقة وقرقعة يصمّ الآذان كما لو أنّ عملاقاً حطّم صحن عملاق.

فقالت لوسي: «ما هذا؟» متشبّثةً بذراع سوزان.

وقالت سوزان: «أنا، أنا خائفةٌ أن ألتفت. إنّ أمراً رهيباً يجري!»

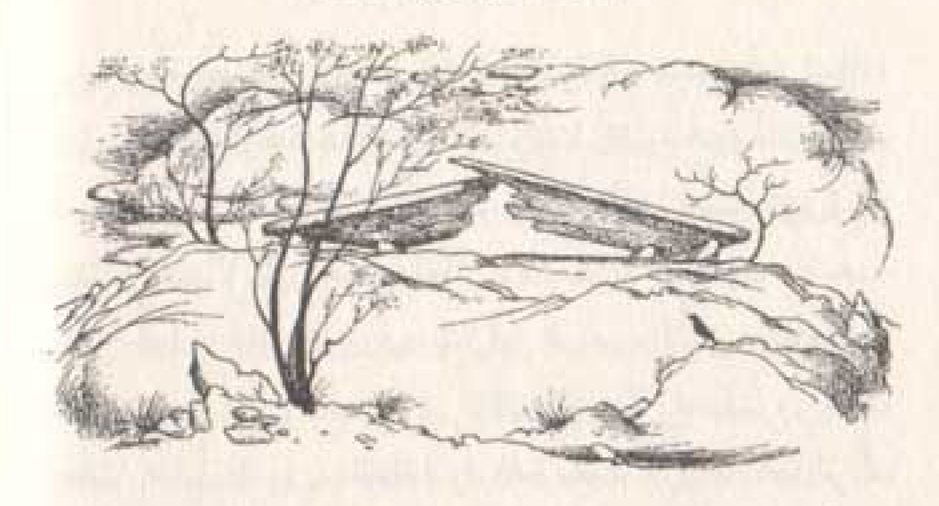
فأجابت لوسي: «إنّهم يفعلون به شيئاً أسوأ. هيّا بنا!» ثمّ دارت إلى الوراء، جاذبةً سوزان معها.

كان شروق الشمس قد جعل كلّ شيء يبدو مختلفاً، وقد تغيّرت الألوان والظلال كلّها، حتّى إنّهما أوّلَ وهلة ما رأتا الأمر المهمّ. ثمّ ما لبثتا أن رأتاه. فإنّ طاولة الحجر كانت قد انشطرت شطرين بشقّ كبير اخترقها من الوسط، ولم يكُن أصلان عليها!

فصاحت البنتان: «أُوه، أُوه، أُوه»، وهما تندفعان راجعتين صوب الطاولة.

وقالت لوسي باكيةً: «آه! ما أسوأ هذا! لم يتركوا جسد أصلان وشأنه؟»

وصرخت سوزان: «مَن فعل هذا؟ وما معناه؟



أهو سحر؟»

فإذا بصوت عظيم يقول من وراء ظهريهما: «نعم! إنّه سحرٌ زائد». والتفتتا، فإذا تحت ضوء الشمس الشارقة أصلانُ نفسه واقفٌ ينفّض لُبدتَه (إذ يبدو أنّه طلع من جديد)، وهو أضخم ممّا سبق ان رأتاه.

فصاحت كِلتا الفتاتين: «أُوه، أصلان!» وهما تحدّقان إليه، خائفتين تقريباً بمقدار ما كانتا مسرورتين.

وقالت لوسي: «ألستَ ميْتاً إذاً، يا أصلان العزيز؟»

فأجاب أصلان: «لستُ ميْتاً الآن!»

فسألته سوزان بصوت مرتعش: «إنّكَ لستَ... لستَ...» ولم تقدر أن تجعل نفسها تقول الكلمة «شبحاً». وحنى أصلان رأسه الذهبيّ، ولحس جبينها. فغمر كيانَها كلَّه دفءُ نَفَسِه ورائحةٌ زكيّة غنيّة بدا أنها عالقة بفروِه.

وقال لسوزان: «أأبدو كما توهّمتِ؟»

فهتفت لوسي: «أُوه، إنّكَ حقيقيّ، إنّك حقيقيّ، يا أصلان!»

ثمّ انطرحت الفتاتان كلتاهما عليه وغمرتاه بالقُبَل.

ولمّا صارتا أهدأ قليلاً، سألت لوسي: «ولكن ما معنى هذا كلّه؟»

فقال أصلان: «معناه أنّه ولو عرفت الساحرة السحرَ القويَّ فما زال هنالك سحرٌ أقوى لا تعرفه. فمعرفتها إنّما ترجع إلى فجر الزمان فقط. ولكنْ لو كانت تقدر أن تنظر إلى الوراء أبعدَ قليلاً، في قلب السكون والظلام قبل بزوغ فجر الزمان، لقرأت هنالك صيغة سحريّة مختلفة. ولكانت عرفت أنّه عندما يُقتَل ضحيّةٌ راغبٌ، ما ارتكب خيانةً قطُّ، بدلاً من شخص خائن، فإنّ طاولة الحجر ذاتَها تنشقُّ، والموت نفسه يبدأ بالتراجع والانهزام. والآن ...»

فقالت لوسي: «أوه،نعم، الآن؟» قافزةً ومصفّقةً بيديها.

قال الأسد: «طيّب، يا بُنيّتيّ. أشعر بأنّ قوّتي ترجع إليّ. هيّا، يا بُنيّتيّ، أمسكا بي إن قدرتما!» ووقف هُنيهةً، وعيناه شديدتا اللمعان وأطرافه ترتعش، يضرب جسمه بذيله. ثُمّ قفز من فوق رأسيهما قفزةً عالية، وهبط على الجهة الأُخرى وراء الطاولة. فإذا بلوسي، وهي تضحك ولا تدري السبب، تتسلّق الطاولة مسرعةً لتمسك به. وإذا بأصلان يقفز قفزة أُخرى. ثمّ ابتدأت مُطاردة محمومة. ودار بهما حوالَيّ رأس التلّة، مبتعداً عن متناول أيديهما حيناً حتّى يتلاشى أملهما بالإمساك به، وسامحاً لهما حيناً بأن تمسكا بذيله تقريباً، ومارّاً من بينهما حيناً، وقاذفاً بهما في الهواء حيناً بمخالبه المخملية المنعّمة تنعيماً

جميلاً ثمّ مُتلقفاً لهما من جديد، ومتوقّفاً فجأةً حيناً حتّى يتشقلب الجميع معاً في كومة فرو وأذرُع وأرجُل يتصاعد منها ضحكٌ سعيد. وقد كانت تلك حفلة مَرَح لم يعرف مثلَها أحدٌ قطُّ إلاّ في نارنيا. ولم تقدر لوسي أن تُقرّر بالتأكيد هل كانت مثل اللّعب بعاصفة رعديّة أو مثل ملاعبة هرّة. والطريف في الأمر أنّه لمّا تمدّد الثلاثة أخيراً يلهثون تحت ضوء الشمس، لم تشعُر البنتان أدنى شعور بالتعب أو الجوع أو العطش.

وما لبث أصلان أن قال: «والآن، إلى العمل! أُحِسُّ أنّني سأزمجِر. فأحسنُ لكما أن تسدّا آذانكما بأصابعكما».

ففعلت البنتان كذلك. ثمّ وقف أصلان، ولمّا فتح فمه ليزمجر صار وجهه مخيفاً جدًّا حتّى لم تستجرئا أن تنظرا إليه. وشاهدتا جميع الأشجار قدّامه تنحني أمام عصفة زمجرته، كما ينحني العشب في المرجة أمام الريح. ثمّ قال:

«أمامنا رحلة طويلة نقوم بها. ينبغي أن تركبا على ظهري». وربض، فاعتلت الفتاتان ظهرَه الذهبيَّ الدافىء، وقد جلست سوزان أوّلاً متمسّكةً بلبدته جيّداً، وجلست لوسي خلفها متمسّكةً بها جيّداً. وبحركةِ قيامٍ عظيمة نهض بهما ثمّ انطلق كالسهم، أسرعَ ممّا يقدر أيُّ حصان أن يعدو، نازلاً على التلّ، ثمّ داخلاً دغل الغابة.

لرُبّما كانت تلك الرحلة أعجب شيءٍ حدث لهما في نارنيا. هل سبق لك أن ركبت على حصانٍ يعدو؟ تصوَّرْ ذلك، ثمّ أبعِد من فكرك ضجيج الحوافر وصرير اللجام،

وتخيّل بدلاً من ذلك وقْع المخالب الكبيرة التي لا تكاد تُصدِر أيّ صوت. ثمّ تخيّلْ، بدلاً من ظهر الحصان الأسود أو الرماديّ أو الكستنائيّ، الفروَ الذهبيَّ الكثيف الناعم، واللِّبدة متطايرة إلى الوراء في الهواء. ثم تخيّل أنّك منطلق بسرعة تُساوي ضعفَي سرعة أسرع حصان سباق. ولكنَّ هذا الركوب لا يحتاج إلى قيادة وهو غير متعِب على الإطلاق. فالأسد يندفع إلى الأمام بثباتٍ وسرعة، ولا يُخطىء أبداً بوضع قوائمه في مواضعها، ولا يتردّد بتاتاً، شاقًّا طريقه بمهارة فائقة بين جذوع الشجر، واثباً فوق العُلّيق وشُجيرات الورد والجداول الصُغرى، وخائضاً الكبرى، وسابحاً في أكبرها. ثمّ إنكَ لستَ راكباً على طريق، ولا في متنزّه، ولا على الجبال، بل عبرَ نارنيا ذاتها، أيّامَ الربيع، هابطاً مساحاتٍ عريضةً يكسوها شجر الزان، وعابراً ممراتٍ محفوفة بشجر السنديان، ومجتازاً بساتينَ بريّة من شجر الكرز الثلجي البياض، ومتجاوزاً الشلّالات الهادرة والصخور المكسوّة بالطحالب والكهوف الرادّة للصّدى، وصاعداً مُنحدَرات تهبُّ عليها الريح وتتوهّج بأجمات الوزّال*، وقاطعاً أكتاف الجبال المكسوّة بالخلنج**، فوق

* الوزّال: شجيرة شوكية كثيفة ذات أزهارٍ صفراء، تنمو في الأراضي الصخرية والصوانية.

** الخلنج: نبات عشبي أوراقه صغيرة دائمة الخضرة، ذا أزهار وردية.

جروفٍ مُدوَّخة، ثمَّ نازلاً نزولاً نزولاً إلى الأودية البريّة من جديد، ثمَّ خارجاً إلى مروجٍ مترامية يكسوها الزهر الأزرق.

وكان النهار قد انتصَف تقريباً لمّا وجدت البنتان أنفسهما تنظران بموازاةِ سفحٍ منحدر إلى قصر، بدا أنّه قصرُ دُميةٍ صغيرٌ من حيثُ أطلّتا، وبدا مجموعةً من الأبراج الحادّة. ولكنَّ الأسد كان مندفعاً نزولاً بسرعةٍ جعلت القصر يكبر كلَّ لحظة. وقبل أن يُتاح لهما وقتٌ للتساؤل عن حقيقته، صارتا فعلاً على مستواه. فإذا به لم يعُدْ يبدو مثل قصرِ دُمية، بل قام قُدّامهما عنيداً عابساً. إذ لم يُطلَّ من شُرفات حصونه أي وجه، وكانت أبوابه مُقفلةً بإحكام. ثمَّ لم يكن من أصلان، دون أن يتمهّل أبداً في عدْوِه، إلّا أن يندفع نحوه مباشرةً كرصاصةٍ مُطلَقة. وصاح:

«هذا بيتُ الساحرة! والآن، تمسّكا جيّداً يا بُنيّتيَّ!»

وبعدَ لحظة واحدة بدا أنَّ العالم كلَّه ينقلب رأساً على عقب، وشعرت البنتان كأنّهما تركتا أحشاءهما وراءهما؛ لأنَّ الأسد استجمع قوّته لقفزة أكبر من أيّة قفزة سابقة، ثمَّ وثب - أو يمكن أن تقول طار - من فوق سور القصرِ تماماً. وإذا بالفتاتين، مبهورتَي الأنفاس لكنْ سليمتين من أيّ أذى، تتشقلبان عن ظهره في وسط ساحة حجريّة واسعة ملآنة بالتماثيل.

الفصل السادس عشر

ماذا جرى للتماثيل؟

صاحت لوسي قائلةً: «يا له من مكان عجيب! ما هذه الحيوانات الحجريّة، وما هؤلاء الناس أيضاً؟ كأنّنا في مُتحَف!»

فقالت سوزان: «سكوتاً! إنَّ أصلان يعمل شيئاً ما».

وقد كان يعمل عمله فعلاً. فإنّه قفز إلى الأسد الحجريّ ونفخ عليه، ثمَّ دار على نفسه مسرعاً، كما لو كان هرّاً يُطارِد ذيلَه تقريباً، ونفخ أيضاً على القزم الحجريّ، وكان هذا (كما تتذكَّر) واقفاً على بُعد بضع أقدام من الأسد وظهرُه نحوَه. ثم وثب إلى حوريّةِ غابة طويلة واقفة بعد القزم، واتّجه جانباً بسُرعة ليُعالج أرنباً حجريّةً إلى يمينه، واندفع نحو قنطورَين. ولكنَّ في تلك اللحظة قالت لوسي: «أوه، سوزان! تطلّعي! انظري إلى الأسد».

أعتقد أنّك شاهدت أحداً يدسّ عود كبريت مشتعلاً في قُصاصة من ورق الجرائد موضوعة تحت الحطب في الموقد. عندئذٍ تمرُّ ثانيةٌ لا يبدو فيها أنَّ شيئاً يحصل، ثُمَّ تُلاحِظ لسان لَهَب دقيقاً يزحف على طرف الورقة. هكذا

كانت الحال الآن . فبعد ثانيةٍ من نفخ أصلان على الأسد الحجريّ، ظهر ذلك الأسد بالصورة الأولى ذاتها. ثُمّ بدأ خيطٌ رقيق من اللون الذهبيّ يسري على ظهره الرُخاميّ، وبعدئذٍ انتشر ذلك الخيط وبدا أنّ اللون يلحس كلّ جسمه كما تلحس النار ورقة الجريدة، ثمّ بينما كان جزؤه الخلفيّ ما يزال متحجّراً بشكلٍ واضح نفَض لُبدتَه، وإذا بكلّ طيّاته الحجريّة تنبض بالحياة وتكتسي شعراً وفرواً. ثم فتح فماً واسعاً أحمر، نابضاً بدفء الحياة، وتثاءب تثاؤبةً هائلة. عندئذٍ كانت قائمتاه الخلفيّتان قد دبّت فيهما الحياة من جديد، فرفع إحداهما وحكّ جلده بها. ثمّ لمّا لمح أصلان، انطلق واثباً وراءه وطاف حوله راقصاً وهو يُهمهِم فرحاً ويقفز ليلحس وجهه.

وبالطبع، التفتت أعينُ الفتاتَين تتبع الأسد. ولكنّ المنظر الذي شاهدتاه كان عجيباً جداً، حتّى سَهَتا عن الأسد سريعاً. ففي كلّ مكان، كانت الحياة تدبّ في التماثيل. وما عادت ساحة الدار تبدو كأنّها مُتحف، بل صارت أشبه بحديقة حيوانات. فقد كانت المخلوقات تعدو وراء أصلان وتتراقص حوالَيه، حتّى كاد يختفي وسط الزحام. وبدلاً من شحوب ذلك الموت كلّه، صارتِ الساحة الآن تعجّ بالألوان الزاهية: أجناب القنطورات الكستنائيّة البرّاقة، قرون أُحاديّات القرن النيليّة، ريش الطيور الباهر، جلود الثعالب البنيّة المائلة إلى الحُمرة، ومثلها جلود الكلاب والساطيرات، جوارب الأقزام الصفراء وقُبّعاتهم الحمراء

الفاقعة، فساتين بنات البتولا الفضيّة، وفساتين بنات الزان الخضراء الشفّافة الجديدة، وفساتين بناتِ الأرزيّ الخضراء شديدة اللمعان بحيث تكاد تبدو صفراء. وبدلاً من سكون الموت، ضجّت الساحة كلّها بأصواتٍ بهيجة: من زئير ونُباح وعواء، وهرير وهبهبة، وزعيقٍ وهديل وصهيل، وخبْط أقدام وهُتافِ تحيّاتٍ واستحسان، وغناءِ فرَح وضحكِ مَرَح.

وما لبثت سوزان أن قالت بلهجة مختلفة: «عجباً! انظُري! أتساءل ... أقصد: أنحنُ في أمان؟»

وتطلّعت لوسي فرأت أنّ أصلان قد نفخ تواً على قدمي المارد الحجريّ.

ثم هتف أصلان فرحاً: «جيّد جدّاً! ما إن تصلح القدمان حتّى يليهما الباقي كلُّه».

فهمست سوزان في أذن لوسي: «ليس هذا ما قصدتُه تماماً». ولكنّ كان الأوان قد فات على تدارُك الأمر، حتّى لو سمع أصلانُ لها. فإنّ التغيير كان قد بدأ يتسرّب داخل رجلَي المارد صعوداً. وإذا به يحرّك قدميه. وما هي إلّا لحظة حتّى رفع هراوته عن كتفه وفرك عينيه وقال:

«يا إلهي! لا بُدّ أنّني غططتُ في النوم. والآن، أين تلك الساحرة الصغيرة اللعينة التي كانت تركض قدّامي على الأرض؟ لقد كانت أمام قدميّ تماماً!»

ولكن لمّا صرخ الجميع يشرحون له ما قد حدث فعلاً، ولمّا وضع كفّه خلف أذنه وطلب إليهم أن يكرّروا كلامهم



كلّه حتّى فهم أخيراً، انحنى حتّى صار رأسه تقريباً بمستوى كُدْسٍ قشّ، ومسّ قبّعته تكراراً تحيّةً لأصلان، والبسمة مُشرقة على قَسَمات وجهه المَهول النبيل. (المَرَدة على أنواعهم نادرون جدًّا الآن في بريطانيا، وقلّة قليلة منهم ذوو

طباع حسنة. ومن المؤكّد أنّك لم تر قطُّ مارداً ضاحك الوجه. فلا شكّ أنّ هذا المنظر يستحقُّ المشاهدة فعلاً).

ثمّ قال أصلان: «والآن، إلى داخل هذا البيت! وليفتّشْ الجميع بكلّ انتباه: فوقُ وتحتُ وفي غرفة سيّدتي! لا تتركوا زاوية واحدة بلا تفتيش. فلا تعرفون أبداً أين يُمكن أن يكون سجينٌ مسكينٌ محبوساً».

وإلى الداخل اندفع الجميع، ثمّ مرّت بضع دقائق فيها تردّدتْ في أرجاء ذلك القصر القديمِ المُظلِم العَفِن أصداءُ تفتيح النوافذ وأصواتُ الجميع صارخةً في وقتٍ واحد: «لا تنسوا الزنزانات... ساعدونا على فتح هذا الباب!... ها هُنا درجٌ لولبيٌّ صغير آخر... أوه! عجباً! ها هُنا كَنْغر مسكين. نادوا أصلان... أفّ! ما أقرف الرائحة هُنا!... حذارِ الأبواب المُفخّخة... اصعدوا إلى هنا! فوقَ مُنبَسَط الدرج هنا كثيرٌ كثيرٌ بعد!»

ولكن أحسن شيء كان حين اندفعت لوسي صاعدةً الدرج هاتفةً: «أصلان! أصلان! وجدتُ السيّد طُمْنوس. هلاّ تأتي مسرعاً!»

وبعد هُنيهة أمسكت لوسي بيديها يدَي الفون الصغير وأخذا يرقصان دائرَين معاً من فرط فرحهما. ولم يكُن صاحبُنا الصغير قد ساء خُلقاً قطُّ لكونه تحوّل تمثالاً إلى حين، وكان بالطبع متشوّقاً لسماع كلّ ما رغبت لوسي في إخباره به.

أخيراً انتهى التفتيش الدقيق لحصن الساحرة وتمّ

إخلاؤه. فإذا بالقصر كلّه يبدو فارغاً، وكلُّ باب ونافذة فيه انفتحت على وسعها، وهبَّ هواء الربيع اللطيف المُنعِش في جميع الأماكن المُعتمة والخبيثة التي طالما احتاجت إليه كل احتياج. ثمَّ اندفع موكب التماثيل المُحرَّرة بكامله إلى ساحة الدار نابضاً بالحياة. عندئذٍ بادر أحدُهم (أعتقد أنَّه طَمنوس) قائلاً:

«ولكنْ كيف نخرج من هنا؟» وذلك لأنَّ أصلان دَخل القصر بقفزة والأبواب ما زالت مُقفَلة.

فقال أصلان: «سنُدبِّر الأمر أحسنَ تدبير». ثُمّ شبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين، وصاح بالمارد بصوتٍ هادر: «هاي! أنت هُناك، ما اسمُك؟»

فقال المارد وهو يمسُّ قُبَّعته احتراماً مرَّةً أُخرى: «المارد رَعْدان، إن أعجب اسمي جلالتكم».

قال أصلان: «حسنٌ! إذاً، أيُّها المارد رعدان، هلَّا تُخرجنا من هنا!»

فأجاب المارد رعدان: «سمعاً وطاعة! يسرُّني تلبية أمر جلالتكم. قِفوا بعيداً عن الأبواب، أنتُم أيُّها الصغار جميعاً!» ثُم مشى خطواتٍ واسعةً إلى البوّابة وأهوى بهراوته الضخمة عليها، طاخ طاخ طاخ. فصرَّت الأبواب من الضربة الأولى، وتصدَّعت من الثانية، وتحطَّمت من الثالثة. ثمَّ عالج البُرجَين إلى كِلا جانبيها، وبعد بضع دقائق من التحطيم والتهديم، اندكَّ البرجان كلاهما مع قسم من السور إلى كِلا الجانبين وسقطا بهديرٍ شديد في كومةٍ من

الركام. وحينما انجلى الغُبار، كان غريباً على الواقفين هناك، في تلك الساحة الحجريَّة الموحِشة المتجهّمة، أن يروا من خلال الثغرة جميع الأعشاب والأشجار المتمايلة والسواقي المتلألئة في الغابة، ومن ورائها التلال الزرقاء أمام صفحة السماء البعيدة.

وقال المارد نافثاً كأكبر محرِّك قطار: «عجباً، إنّي أتصبَّب عرقاً! السبب قلَّةُ التمرين والحركة. لا أعتقد انَّ إحداكما، أنتما السيِّدتين الصغيرتين، تحمل منديلاً أو ما شابه!»

فقالت لوسي: «بلى، عندي منديل!» واقفةً على رؤوس أصابع قدميها، ورافعةً منديلها إلى اقصى حدّ تقدر عليه.

فقال المارد رعدان مُنحنياً: «شكراً لكِ، يا آنسة! وفي اللحظة التالية سرى الخوف في أوصال لوسي، إذ وجدت نفسها مُعلَّقة في الهواء بين إبهام المارد وإصبعه. ولكنْ بينما هي تقترب نحو وجهه، أجفل فجأةً ثمَّ أنزلها برِفق على الأرض متمتماً: «يا إلهي! لقد امسكت بالبنت الصغيرة بدل المنديل. ألتمس عفوكِ، يا آنسة، إذ حسبتُكِ أنتِ المنديل!»

فقالت لوسي ضاحكةً: «لا، لا! هاكَ المنديل!» وهذه المرَّة تمكَّن من الإمساك بالمنديل، ولكنَّهُ لم يكُن بالنسبة إليه إلَّا مثل حبَّة سُكَّر النبات بالنسبة إليك، حتّى إنَّ لوسي لمَّا رأته يمسَح بها وجهه الضخم الأحمر قالت:

«أرى أنّها لا تفيدك كثيراً يا سيّد رعدان».

فأجاب المارد بأدب: «مُطلقاً، مُطلقاً،! ما رأيتُ قطّ منديلاً أحسن. إنّها ناعمة جدًّا وسهلة الاستعمال كثيراً. إنّها... لا أعرف كيف أصِفها!»

وقالت لوسي للسيّد طمنوس: «يا له من مارد لطيف ظريف!»

فأجابها الفون: «نعم، بالتأكيد. ولطالما كان أفراد عائلته كلُّهم طيّبين. وهي واحدة من أكثر عائلات المردة احتراماً في نارنيا. ربما لم يكونوا أذكياء كثيراً (لم أعرف يوماً مارداً ذكياً)، ولكنّهم عائلة عريقة، لها تقاليدها، كما تعرفين. ولو كان من النوع الآخر، لما حوّلته الساحرة قطّ إلى تمثالٍ حجريّ».

عندئذٍ صفّق أصلان بمخلبيه، ودعا إلى السكوت، وقال:

«لم ينتهِ عمل يومنا بعد. وإن أردنا أن نهزم الساحرة نهائياً قبل وقت النوم، فعلينا أن نتوجّه إلى المعركة حالاً».

فأجاب القنطور الأكبر: «ونخوضها أيضاً، يا سيّد، كما أرجو».

فقال أصلان: «طبعاً. والآن! فالذين لا يقدرون أن يُجاروا، أي البنتان والأقزام والحيوانات الصغيرة، عليهم أن يركبوا على ظهور القادرين، أي الأُسود والقنطورات

وأحاديّات القرن والأحصنة والمَرَدة والنسور. أمّا أصحاب حاسّة الشمّ القويّة فعليهم أن يتقدّموا معنا، نحن الأسدَين، ليتشمّموا ساحة المعركة. فتيقّظوا واصطفّوا جيّداً».

وبكثير من النشاط الصاخب والهُتاف الحماسيّ، اصطفّوا وانطلقوا. وكان المسرور الأكبر في المجموعة هو الأسد الآخر. وقد ظلّ يطوف راكضاً في كلّ مكان، متظاهراً بأنّه مشغول كثيراً، لكي يقول لكلّ مَن التقاه: «أسمعتَ ما قاله؟ نحنُ الأسدَين. وهذا يعني إيّاه وإيّاي. نحنُ الأسدين. ذلك هو ما يعجبني في أصلان. لا مُحايَدة، ولا استبعاد. نحن الأسدين. هذا يعني إيّاه وإيّاي». وظلّ يقول ذلك على الأقلّ حتّى حمّله أصلانُ ثلاثةَ أقزام وحوريّة غابات وأرنبين وقُنفذاً. فذلك جعله يهدأ قليلاً.

ولما صار الجميع مستعدّين، انطلقوا عبر الثغرة في سور القصر. وكان كلبُ راع قد ساعد أصلان فعلاً خيرَ مساعدة في جعلهم يصطفّون حسب ترتيبهم الصحيح. ففي الطليعة انطلق الأسدان والكلاب تتشمّم في كلّ ناحية. ثمّ التقط كلبُ صيدٍ كبيرٌ في الأخير الرائحة وأطلق نُباح إعلام. فلم يُضيّع أحدٌ بعد ذلك دقيقة واحدة. إذ إنّ الكلاب والأسدَين والذئاب، وغيرها من الحيوانات الصيّادة، انطلقت حالاً بأقصى سرعتها وأنوفُها إلى الأرض. أمّا الباقيات كلُّها فسارت بترتيبٍ وراءها في خطٍّ يكاد يبلغ كيلومتراً واحداً، منطلقةً بأقصى سُرعتها.

وكان الضجيج أشبه بما يصدر عن حملة صيد الثعالب عند الإنكليز، إلّا أنّه كان أفضل، لأنّه بين الحين والحين كانت تُمازِجُ هريرَ الكلاب زمجرةُ الأسدِ الآخر، وأحياناً زمجرةُ أصلان نفسه، وقد كانت أقوى بكثير وأشدّ هولاً. وأخذت المجموعة تُضاعف سُرعتها كلّما صارت ملاحقة الرائحة أسهل فأسهل. ولمّا وصلت إلى آخرِ منعطفٍ في وادٍ متعرّج ضيّق، سمعت لوسي بالإضافة إلى جميع هذه الأصوات ضجيجاً آخر، صوتاً مختلفاً بعث في داخلها شعوراً غريباً عجيباً. وكان ضجيجَ هُتافٍ وصُراخ وصليل معدن يضرب معدناً.

ثمّ خرجوا من الوادي الضيّق، وفي الحال ظهر سببُ الضجيج. فقد كان واقفاً هناك بطرس وإدمون وباقي جيش أصلان يُقاتلون ببسالةٍ جمهور المخلوقات الرهيبة التي شاهدتها لوسي البارحة. على أنّها الآن، في ضوء النهار، ظهرت أكثر غرابةً وشراً وتشوّهاً. كما بدا أيضاً أنّ هنالك الكثيرَ الكثير منها. أمّا عسكر بطرس، وقد كانت ظهورُهم نحوها، فقد بدا عددهم قليلاً إلى حدٍّ هائل. وظهرت تماثيل منثورة في ساحة المعركة كلّها، بحيثُ تبيّن أنّ الساحرة كانت تستخدم عصاها. ولكن لم يبدُ أنّها ما زالت تستخدمُها آنذاك. فقد كانت تحارب بسكّينها الحجريّة. وكان بطرس هو مَن تحاربه، وكلاهما يقاتل بشدّة وسرعة حتّى لم تكد لوسي تقدر على تمييز ما يجري، بل رأت فقط السكّين الحجريّة وسيف بطرس يبرقان بسرعة، حتّى

ظهرا كأنّهما ثلاث سكاكين وثلاثة سيوف. وكان هذان المقاتلان كلاهما في وسط الساحة، فيما اصطفَّ الفريقان إلى كِلا جانبيهما. وحيثما تطلّعت لوسي، شاهدت أموراً مُروِّعة تجري.

فصاح أصلان: «انزلا عن ظهري، يا بُنيّتيَّ!» فترجّلتا كِلتاهما وتشقلبتا. وإذا الأسدُ العظيم، بزمجرةٍ هزّت نارنيا كلّها من عمود الإنارة الغربيّ إلى شواطىء البحر الشرقيّ، ينقضُّ على الساحرة البيضاء انقضاضاً. ورأت لوسي وجه الساحرة مرفوعاً نحو الأسد وعليه علاماتُ الرُّعب والذهول. ثمّ تدحرج الأسد والساحرة معاً، إنّما الساحرة من تحت. وفي اللحظة عينها اندفعت إلى صفوف العدوّ اندفاعاً محموماً جميعُ المخلوقات البارعة في القتال والتي اصطحبها أصلان من بيت الساحرة: الأقزام بفؤوسهم الحربيّة، الكلابُ بأنيابها الحادّة، المارد بهراوته الغليظة (وقد سحقت قدماه أيضاً عشراتٍ من الأعداء)، أحاديّات القرن بقرونها النطّاحة، القنطورات بسيوفها وحوافرها.





عندئذٍ دبَّت الحماسة في عسكر بطرس المنهوكين فهتفوا، فيما صاح القادمون الجُدُد وهدروا، وأطلق الأعداء عويلاً وبربرة مُروَّعين، حتّى تردَّد في الغابة كُلّها ضجيجُ ذلك الهجوم وعجيجُه.

الفصل السابع عشر

صَيد الغزال الأبيض

انتهت المعركة كلُّها بعد دقائق قليلة من وصول أصلان وجماعته. وقد قُتل مُعظم الأعداء في أوّل هجمة شنَّها هؤلاء. ولمّا رأى كل من بقي على قيد الحياة أنَّ الساحرة قد ماتت، استسلم بعضهم وهرب بعضهم. وكان تالي شيء لفت انتباه لوسي أنَّ بطرس وأصلان تصافحا بحرارة. وقد استغربت أن ترى بطرس كما بدا لها آنذاك، إذ كان وجهه شاحباً وعابساً جدًّا وظهر أكبر سنًّا مّما هو بكثير.

ومضى بطرس يقول: «كان الفعل كلّه فعل إدمون. وكان ممكناً أن نُهزم لولاه. فقد كانت الساحرة تُحوِّل جنودنا إلى حجارة، شمالاً ويميناً. ولم يكُن شيءٌ ليوقفها. فشقَّ طريقه محارباً بين ثلاثة غيلان إلى حيث كانت تحوِّل فهداً من فهودك إلى حجر. ولمّا وصل إليها دفعه حُسن تفكيره إلى أن يهويَ بسيفه على عصاها فيُحطِّمها بدلاً من محاولة التوجُّه إليها مباشرةً والتعرُّض لأن يصير هو نفسه حجراً بَئِساً. وكانت تلك هي الغلطة التي ارتكبها الآخرون كلُّهم. فما إن تحطَّمت عصاها، حتّى بدأت تلوح

لنا فُرصةً ما، لو لم نكن قد فقدنا كثيرين فعلاً. وقد جُرح إدمون جراحاً عميقة. فعلينا أن نذهب ونراه».

ثمَّ وجدوا إدمون في عهدة السيِّدة سمُّورة على بُعدٍ قصيرٍ من خطِّ القتال. وكان مُضرَّجاً بدمه، وفمه منفتحاً، ووجهه ذا لونٍ أخضر مُخيف. فقال أصلان:

«هيّا بسُرعة يا لوسي!»

وعندئذٍ، أوّلَ مرّة تقريباً، تذكَّرت لوسي شراب البلسم الشافي الثمين الذي سبق أن تلقَّته هديّةً في عيد الميلاد. وارتجفت يداها كثيراً حتّى تعذَّر عليها تقريباً أن تنزع سِدادة القنّينة. إلاّ أنّها تمكَّنت من عمل ذلك أخيراً وصبَّت بضع قطرات في فم أخيها.

وقال أصلان: «هنالك جرحى آخرون»، وهو ما زال ينظر إلى وجه إدمون الشاحب مُتلهِّفاً، عسى أن يكون للدواء مفعولٌ شافٍ.

فأجابت لوسي بانفعال: «أعرف، أعرف. مهلاً، مهلاً!»

فقال أصلان بصوتٍ أكثر جِدّيّة: «يا بنتَ حوّاء، آخرون أيضاً على حافة الموت. أيجب أن يموت مزيدٌ من الأشخاص لأجل إدمون؟»

أجابت لوسي: «أنا آسفة، يا أصلان!» وقامت وذهبت معه. ثمَّ مضى نصف الساعة التالي وهما مشغولان: لوسي مُداويةً الجرحى وهو مُعيداً الحياة إلى كلّ مَن حُوِّل حجراً. وعندما فرغَت أخيراً فعادت إلى إدمون، وجدته واقفاً على

قدميه وقد شُفي تماماً من جراحه، كما بدا أيضاً أفضل ممّا سبق أن رأته... منذ دهور كما تصوَّرت، وبالحقيقة منذ سنته الأولى في تلك المدرسة الرهيبة حيث بدأت حالته تسوء. فها هو يرجع إلى حقيقة ذاته القديمة ويتمكَّن من النظر إلى وجهك مباشرةً بلا شيطنة. وهنالك، في ساحة المعركة، جعله أصلان فارساً نبيلاً.

وهمست لوسي في أذن سوزان: «هل يعرف ما فعله أصلان لأجله؟ أيعرف حقيقة الاتفاق الذي تمَّ مع الساحرة؟»

قالت سوزان: «صه! طبعاً، لا يعرف».

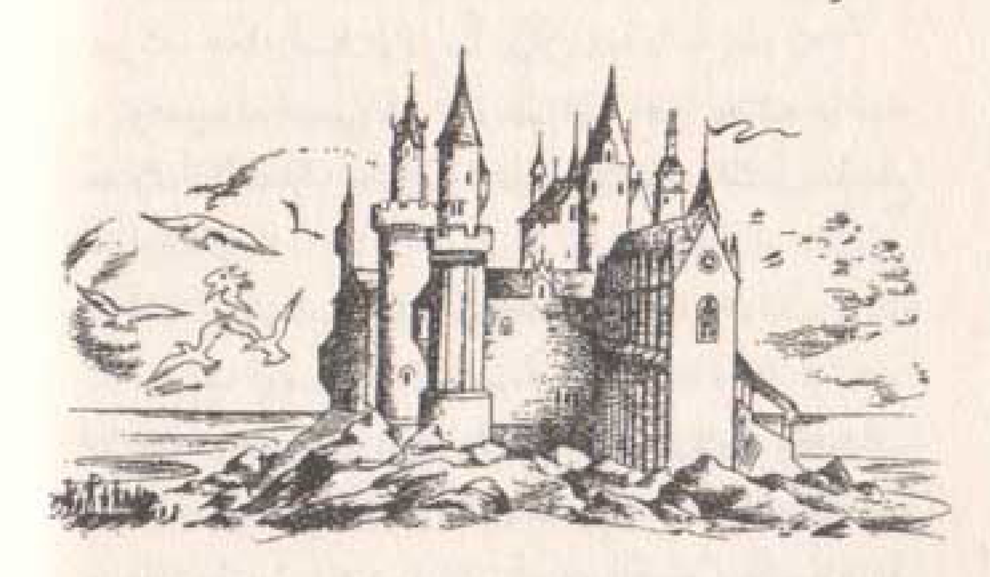
فسألت لوسي: «ألا يجب أن نقول له؟»

فقالت سوزان: «أوه، بالطبع لا. فسيكون وقع الخبر عليه رهيباً. فكّري كيف يكون شعورك لو كنتِ محلَّه!»

قالت لوسي: «مهما كان، أعتقد أنّه يجب أن يعرف». ولكنّهما في تلك اللحظة قُوطعا.

وفي تلك الليلة، ناموا حيث كانوا. ولستُ أدري كيف دبَّر أصلان الطعام لهم جميعاً. إلاّ أنّهم، بطريقةٍ أو بأخرى، وجدوا أنفسهم جميعاً قاعدين على العشب في حفلة شاي حوالَى الساعة الثامنة. وفي اليوم التالي انطلقوا نحو الشرق نزولاً على ضفاف النهر الكبير. وبعدَ غدِ ذلك اليوم وصلوا إلى مصبِّ النهر، في ساعة الشاي تقريباً. وإذا بهم يرون قصر كيربرافيل منتصباً فوقهم على تلَّته الصغيرة. وقد كان أمامهم رِمال وصخور وبِرَك صغيرة من

المياه المالحة، وطحالب بحريّة، عابقة برائحة البحر، وأميالٌ وأميالٌ من الأمواج الخضراء المائلة إلى الزُرقة تتكسّر بلا توقف على الشاطىء المنبسط. ولكَم كانت صيحات طيور النّورس مؤنسة! أسمعتَ صياح النّورس مرّةً؟ هل تتذكّر؟



وبعد تناول الشاي ذلك المساء، استطاع الأولاد الأربعة كلُّهم أن ينزلوا إلى الشاطىء ثانيةً ويخلعوا أحذيتهم وجواربهم ويتحسّسوا الرمال بين أصابع أقدامهم. ولكنّ اليوم التالي كان أكثر جدّيّةً. فعندئذٍ، في قاعة كيرپرافيل الكبيرة، تلك القاعة العجيبة ذات السقف العاجيّ، والحائط الغربيّ المزيّن بريش الطواويس، والباب الشرقيّ المُطلّ على البحر، وفي حضور جميع أصدقائهم، وعلى صوت الأبواق، توّجَهم أصلان بمهابة وتقدَّمهم إلى العروش الأربعة وسط هُتافات تصمّ الآذان. «عاش الملك بطرس!

عاشت الملكة سوزان! عاش الملك إدمون! عاشت الملكة لوسي!»

ثمّ قال أصلان: «عندما يصير الإنسان ملكاً أو ملكة في نارنيا، يبقى ملكاً أو ملكة. فكُونا على مستوى المسؤوليّة، يا ابنَي آدم! وكُونا على مستوى المسؤوليّة يا ابنتَي حوّاء!»

ومن الباب الشرقيّ الذي كان مفتوحاً على وُسعِه، سُمِعت أصوات شُبّان البحر وحوريّاته سابحين على مقربة من الشاطىء ومُنشِدين الأغاني إكراماً لمِلكَيهم الجديدَين وملكتَيهم الجديدتَين.

وهكذا جلس الأولاد على عروشهم وسُلّم كلٌّ منهم صولجاناً، وأعطَوا هدايا ومكافآت لجميع أصدقائهم: لطمنوس الفون، والسّمّورين، والمارد رعدان، والفهود، والقنطورات الطيّبة، والأقزام الطيّبين، والأسَدِ الآخر. تلك الليلة أُقيمت وليمة عظيمة في كيرپرافيل، تخلّلها مَرَح ورقص، حيث تألّق الذهب وتدفّق المشروب، وصدحت موسيقى أهل البحر تجاوباً مع موسيقى داخل القصر، لكنها كانت أعجبَ وأعذبَ وأعلى.

ولكنْ وسط ذلك الابتهاج كلّه، انسلّ أصلان خارجاً بكلّ هدوء. ولمّا لاحظ الملكان والملكتان غيابه، لم يقولوا شيئاً عن ذلك. إذ كان السيّد سمّور قد أنذرهما قائلاً: «سيأتي ويذهب دائماً. فيوماً ترونه، ويوماً لا ترونه. إنّه لا يحبُّ أن يُقيَّد، وعنده بالطبع بلدان أخرى لا بدّ أن يهتمّ بها. فلا بأس أبداً! سيقوم بزياراتٍ كثيرة لكم. إنّما

لا تُلِحُّوا عليه أن يبقى. فهو أسد بَرّي كما تعرفون، وليس مثل الأسود المروَّضة الذليلة».

والآن، كما ترى، كادت هذه القصّة تنتهي (إلاّ أنّها لم تنتهِ تماماً بعد). فهذان الملكان وهاتان الملكتان حكموا نارنيا أحسنَ حُكم، وكان حكمهم مديداً وسعيداً. وقد قضَوا كثيراً من وقتهم أوّلاً في التفتيش عن بقايا جيش الساحرة البيضاء وفي إبادتهم، ومضى زمان طويل بالحقيقة تخلّلته أخبار أمور قبيحة تجري سرّاً في أقسام الغابة الأكثر وحشيّةً: هجمات أشباح هُنا وحوادث قتل هناك؛ مشاهدة مِسخ ذئب أحدَ الأشهُر، وشائعة عن عفريتة في الشهر التالي. ولكنْ في الأخير تمّ استئصال تلك الأنواع الخبيثة كلّها. وقد سنّ الملوك قوانين صالحة، وحافظوا على السلام والأمان، وأنقذوا الأشجار الطيّبة من القطع بلا سبب، وحرّروا الأقزام الصغار والساطيرات الصغيرة من الذهاب إلى المدرسة باكراً، وأوقفوا عموماً كلّ متطفّل ودخيل، وشجّعوا عامّة الناس الذين يرغبون أن يعيشوا بسلام ويدَعوا الآخرين يعيشون بسلام. وطردوا خارجاً المَرَدة الأشرار (وهم صنف آخر مختلف تماماً عن المارد الطيّب رعدان) من شمال نارنيا كلّما تجرّأ هؤلاء على عبور حدود البلد. وأقاموا صداقاتٍ وأحلافاً مع البلدان الواقعة وراء البحر، وكانوا يزورونهم زياراتٍ ملوكيّةً ويستقبلونهم هم أيضاً في زيارات ملوكيّة. أمّا هم أنفسُهم فقد كبروا

ونضجوا وتغيّروا على مرّ السنين. إذ صار بطرس رجلاً طويل القامة وواسع الصدر، ومُحارِباً عظيماً، حتّى دُعي «الملك بطرس العظيم».

وأصبحت سوزان سيّدة طويلة وجميلة ذات شعر أسود يكاد يُلامِس قدميها، وصار ملوك البلدان البعيدة يبعثون موفَدين طالبين يدها للزواج؛ ودُعيت «الملكة سوزان الرقيقة». وصار إدمون رجلاً أكثر جدّيّةً وهدوءاً من بطرس، بارعاً في المشورة والحُكم؛ حتّى دُعي «الملك إدمون العادل». أمّا لوسي، فقد ظلّت دائماً فَرِحة مَرِحه، وكانت سيّدةً ذهبيّة الشعر تمنّى جميع الأمراء في تلك الديار لو تصيرُ مليكتَهم، وقد دعاها شعبها «الملكة لوسي الباسلة».

وهكذا عاشوا في سعادة غامرة. وإذا تذكّروا مرّةً حياتهم في هذا العالم فكما يتذكّر المرء حلماً لا غير. وذات سنة حدث أنّ طمنوس (وكان آنذاك قد صار فوناً كهلاً وبدأ يسمن) نزل إلى النهر وحمل إليهم خبراً بأنّ الغزال الأبيض قد ظهر مرّةً أُخرى في تلك الأنحاء، وهو الغزال الأبيض الذي يُحقّق لك أُمنياتك إذا أمسكتَ به. فما كان من هذين الملكين وهاتين الملكتين، مع وُجهاء حاشيتهم، إلاّ أن قاموا بحملة صيدٍ على الأحصنة استخدموا فيها الأبواق وكلاب الصيد، لمطاردة الغزال الأبيض في الغابات الغربيّة. وما طالت مطاردتهم كثيراً حتّى لمحوه. فاندفع أمامهم وهم يلحقون به مسافةً طويلة في

سهول الأرض ووعورها، وبين الغابات الكثيفة والخفيفة، حتّى أنهك التعب أحصنة رجال الحاشية كلّهم، وظلّ الملوك الأربعة يطاردون الغزال، حتّى رأوه يدخل دغلاً لا تقدر أحصنتهم أن تتبعه فيه. عندئذٍ قال الملك بطرس (وقد صاروا يتحدّثون الآن بأسلوب مختلف بعدما مضى على كونهم ملوكاً زمان طويل):

«أيّها الرُّفقاء الكرام، لنترجّلِ الآن عن أحصنتنا ونُطاردْ هذا الحيوان في قلب الدّغل؛ فطوال عمري لم أصطد طريدةً أشرف!»

فقال الآخرون: «سنفعل ما تفضّلتَ بطلبه، يا سيّد!»

وهكذا ترجّلوا وربطوا أحصنتهم بالأشجار، ودخلوا الغابة الكثيفة مشياً على الأقدام. وما إن دخلوها، حتّى قالت الملكة سوزان:

«أيّها الأصحاب الكرام، ها هُنا عجيبةٌ عظيمة. فيبدو أنّي رأيتُ شجرة من حديد!»

فقال الملك إدمون: «يا سيّدة، لو نظرتِ إليها مليًا لرأيتِ أنّها عمودُ حديد على رأسه مصباحُ إنارة».

وقال الملك بطرس: «ورأسِ أصلان، إنّه لأمرٌ غريب أن تُقام منارةٌ هنا حيثُ تلتفُّ الأشجار حولها كثيفةً وعاليةً جدًا فتغمرها، حتّى إذا أُضيئت لا يستفيد أحدٌ من نورها!»

وقالت الملكة لوسي: «يا سيّد، الأرجح أنّه لمّا أُقيم هذا العمود وهذا المصباح هنا كان في المكان أشجار

أصغر أو أقلّ، أو لم يكُن شجرٌ قطّ. فهذه الغابة جديدة وعمود الحديد عتيق». ثمّ وقفوا يتأمّلونه، حتّى قال الملك إدمون:

«لا أدري ما السرّ، ولكنّ هذا المصباح على العمود يؤثّر فيّ تأثيراً عجيباً. يخطر على بالي أنّي رأيتُ ما يُشبهه من قبل، كما لو كان في حلم، أو في حلمٍ عن حلم».

فأجاب الجميع: «يا سيّد، هذه حالتُنا نحن كلّنا أيضاً».



وقالت الملكة لوسي: «وفوق هذا، فلا يغيب عن بالي أنّنا إذا جاوزْنا هذا العمود فإمّا نُلاقي مغامراتٍ غريبة وإمّا يحصل تغيير كبير في حظوظنا».

فقال الملك إدمون: «يا سيّدة، هذا الخاطر عينه يجيش في صدري أيضاً».

وقال الملك بطرس: «وفي صدري أيضاً، يا أخي».

وقالت الملكة سوزان: «وفي صدري أنا أيضاً. وعليه، فإنّي أُشير عليكم أن نرجع بسرعة إلى أحصنتنا ونكفَّ عن مطاردة هذا الغزال الأبيض!»

فقال الملك بطرس: «يا سيّدة، أرجو منك أن تعذريني. فإنّنا منذ صرنا نحن الأربعةَ مَلِكي نارنيا ومَلِكتَيها، لم نمُدَّ أيديَنا قطّ إلى شأنٍ من الشؤون العليا، كالمعارك ومهام البحث وحمْل السلاح وقضايا العدالة وما شابهها، ثمّ نفضْنا أيديَنا بعد ذلك. ولكنّنا دائماً كُنّا نُنجز كلَّ ما مددنا أيدينا إليه».

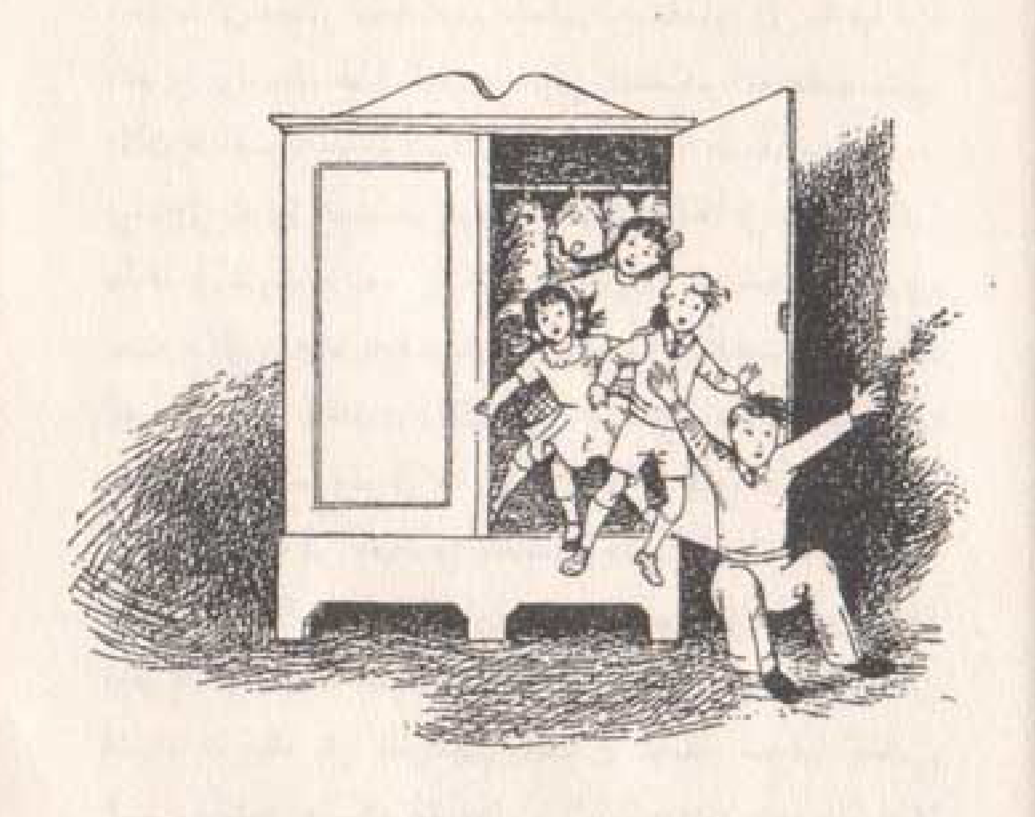
وقالت الملكة لوسي: «يا أُختاه، إنّ جلالة أخينا يتكلّم بالصواب. فيبدو لي أنّ العار سيلحق بنا إن كُنّا بسبب أيّ تخوُّف أو توجُّس نتراجع عن مطاردة حيوانٍ نبيل كهذا الذي نُطارِده الآن».

فقال الملك إدمون: «وأنا أتفق معكَ. وبي رغبة شديدة لمعرفة شأن هذا الشيء، بحيثُ لن أتراجع بطيبة خاطر عمّا نحن في صَدَده، ولَو مُقابل أثمن جوهرة في نارنيا وجميع الجُزُر الأُخرى!

عندئذٍ قالت الملكة سوزان: «إذاً، باسْم أصلان، إنْ كان لا بدَّ من الأمر، فلنتقدَّمْ إلى الأمام ونَخُضِ المغامرة التي تكون من نصيبنا!»

وهكذا توغّل المَلِكان والملكتان في قلب الدَّغل. وقبل أن يخطوا عشر خطوات، تذكّروا كلُّهم أنّ الشيء الذي قد رأوه يُسمّى «عمود إنارة». ثمّ قبل أن يتقدّموا

عشرين خطوة أُخرى، لاحظوا أنّهم يشقّون طريقهم لا بين الأغصان بل بين المَعاطِف. وفي اللحظة التالية خرجوا جميعاً يتشقلبون من بابِ خزانةِ ثياب إلى الغرفة الخالية. وما عادوا بعدُ مَلِكين ومَلِكتَين في رحلة صيد على الخيل، بل مجرّد بطرس وسوزان وإدمون ولوسي في ثيابهم العتيقة. وقد كان ذلك في النهار نفسه وفي ساعة



النهار نفسها حين دخلوا الخزانة كلُّهم حتّى يختبئوا. وكانت السيّدة مكريدي والزوّار ما زالوا يتحدّثون في الممرّ. ولكن من حُسن حظّ الصغار أنّ أولئك لم يدخلوا الغرفة الخالية، وهكذا لم يمسكوا بهم.

وكان ممكناً أن تكون هذه نهاية القصّة كلّها، لولا شعورُهم بأنّ عليهم بالحقيقة أن يشرحوا للأُستاذ سبب فقدان أربعة معاطف من خزانة الثياب. إلاّ أنّ الأُستاذ، وقد كان رجلاً شهيراً جدًّا، لم يطلب منهم ألاّ يتحامقوا وألاّ يكذبوا، بل صدّق قصّتهم بكاملها، وقال لهم:

«لا. لستُ أعتقد أنّه من الخير أن ترجعوا عبر باب الخزانة لإحضار المعاطف. فإنكم لن تصلوا إلى نارنيا مرّةً أخرى بواسطة هذا الطريق. ولن تنفعكم المعاطف كثيراً الآن إذا قدرتم أن تذهبوا! إيه؟ ما ذلك؟ طبعاً، سترجعون يوماً إلى نارنيا. فعندما يصير الإنسان ملكاً في نارنيا، يظلُّ ملكاً في نارنيا دائماً. ولكنْ لا تحاولوا استخدام الطريق عينه مرّتين. وأنا بالحقيقة لا أُجرِّب أن أذهب إلى هناك أبداً. فسوف يحدث ذلك حين لا تتوقّعونه. ولا تتحدّثوا كثيراً عن الأمر ولو في ما بينكم. ولا تذكروه لأحدٍ إلاّ إذا تبيّن لكم أنّه ممّن خاضوا بأنفسهم مثل هذه المغامرات. ما حقيقة الأمر؟ وكيف تعرفون هل خاضوا مثل مغامراتكم؟ أُوه، إنكم سوف تعرفونه حقّ المعرفة. فإنّ ما يقولونه من أشياء غريبة، بل نظراتهم بالذات أيضاً، سوف يُفشي السّر. فأبقوا أعيُنكم مُفتّحة. يا إلهي، ماذا يعلّمونهم فعلاً في هذه المدارس؟»

تلك نهاية مغامرة خزانة الثياب. ولكنْ إنْ كان الأُستاذ على حقّ، فإنّها ما كانت إلاّ بداية مغامرات نارنيا.

الحصان وصبيُّه

كانت مفاجأةً عظيمة لشصطى أن يكتشف أنه ليس ابن أرشيش الصياد. لكن حين أخذه بري، الحصان الناطق، بعيداً عن أرض كالورمِن القاسية بحثاً عن أرض نارنيا الآمِنة والسعيدة، حيث يحكم الملك الأعلى بطرس، وجد شصطى نفسه مغموراً بالأسرار والغموض والمغامرات بشكلٍ لم يكن يحلم به.

تمتلئ رحلتهم بالخوف والخطر والمكائد والمغامرات، فيما كانوا يشقون طريقهم متخفين في مدينة طشبان، مارِّين بالقبور الغريبة المخيفة، ثم أياماً محرقةً وليالي باردةً في الصحراء القاسية إلى جبال بلاد آرخيا العالية. وحتى حين تلوح نارنيا بالأفق، يدرِك شصطى أن عليه أن يهزم خوفه في النهاية. قال لنفسه: «إنْ ذُعِرْتَ من هذه المعركة وفررْتَ، فسوف تخشى كلَّ معركةٍ أخرى طول عمرك. فالآن، وإلا فلا إلى الأبد!»

هذه مغامرة ثالثة في روايات «عالم نارنيا» المثير.